الإمام الجليل

محمد أبو زهرة

٥١

زهرة التفاسير

الشرك فى كل العصور فى إنكارهم رسالات الله، ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، ﴿إِنْ﴾ هنا نافية وهى مع الإثبات بعدها بالاستثناد تفيد القصر، أى أنتم معشر الرسل مقصورون على البشرية، لا يصح أن تتعدوها إلى ادعاء أن الله يخاطبكم من عليائه وأنكم رسله إلينا، كما قال مشركو مكة: ﴿... مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... ⑦﴾ [الفرقان]، وجاء على لسان المشركين قولهم: ﴿مِّثْلُنَا﴾، أى أنكم تماثلوننا فى البشرية ونحن لسنا أنبياء، فلستم بأنبياء مثلنا، وإنكم تحاولون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا من أوثان، وكأنهم بهذا يستندون إلى حجة واهية من حججهم الداحضة، وهى أنهم يتبعون آباءهم، وذلك كافٍ لاستمرارهم فى غيهم.

وقرنوا قولهم هذا بأن الرسل لم يقدموا حجة، فأنكروا ما جاء إليهم من معجزات دالة على رسالاتهم تعنتا ولجاجة فى الخصومة، وقالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أى بدليل واضح بيِّن يلائمنا، والسلطان هنا الحجة، وكثيرا ما عبر القرآن الكريم عنها بالحجة؛ لأنها تجعل للخصم سلطانا على خصمه يلزمه بالقبول والخضوع لما يقول.

تنبيهان:

أولهما: أن الله تعالى جمع أقوال الرسل فى قول واحد، وهم كانوا فى أجيال مختلفة، وجمع أقوال المشركين فى قول واحد؛ لأنهم جميعا على قول واحد، وكأنه نابت من منابت الشرك المتحدة، فيكون إنتاجها واحدا، ولبيان أن الرسل أجيبوا جميعا بمثل ما أجيب فليتأسَّ وليصبر، فإن الله لا يضيع أجر الصابرين.

ثانيهما: أننا خرَّجنا قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ رجحنا أن ﴿مِّن﴾ بيانية وسقنا ما نحسبه دليلا على الترجيح، ومن الحق علينا أن نذكر رأيا مخالفا لرأينا وهو رأى إمام البلاغة الزمخشرى، فهو يرجح أن ﴿مِّن﴾ تبعيضية، ولننقل

لك عبارته الدالة على ذلك فهو يقول: «فإن قلت ما معنى التبعيض فى قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ما علمته جاء هكذا إلا فى خطاب الكافرين كقوله تعالى: ﴿... وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ... (٤)﴾ [نوح]، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ... (٣١)﴾ [الأحقاف]، وقال فى خطاب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء.

وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد، وقيل: أريد يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم[(١)].

هذا ما وجب ذكره من كلام الزمخشرى ليعلم القارئ الموضوع من وجوه النظر، وما كنا لنهمل رأى إمام البيان الزمخشرى، وقد يسأل سائل لما ذكرت ﴿مِن﴾ فى جانب المشركين إذا آمنوا، ونقول: لكثرة ذنوبهم فكان التعبير فيه إشارة إلى أن الغفران لكلها مع كثرته.

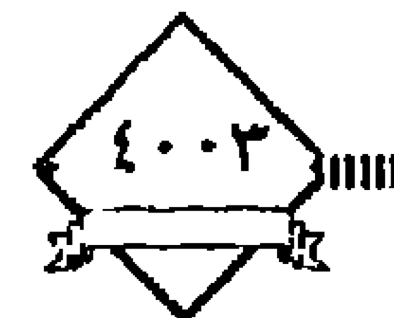
إجابة الرسل على اعتراض المشركين:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

اعترض المشركون بأنهم بشر مثلهم، وبأنهم لم يأتوا بسلطان يثبت الرسالة، ولقد سلموا لهم الأمر الأول مؤكدين تسليمهم، قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أكدوه بأن قصروا أنفسهم على البشرية لا يعدونها، ولكن المشركين بنوا على المثلية بطلان دعواهم فلم يسلموا لهم ذلك، أى أنهم سلموا لهم بالمقدمة ولم يسلموا

---

(١) ذكره الزمخشرى فى الكشاف: ج٢/ ٣٦٩.



لهم بالنتيجة؛ لأنه لا تلازم بين التماثل بينهم وبين غيرهم فى البشرية ومنع الرسالة؛ ولذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، فالاستدراك استدراك من النتيجة التى رتبوها فى زعمهم وقد عدوا هذه النبوه منًّا من الله تعالى على الذين اختارهم من صفوة عباده سبحانه وتعالى: ﴿... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (١٢٤)﴾ [الأنعام]، وقد قالوا: إنه من الله تواضعا، وتبرئة لأنفسهم من أن يعتقدوا أن لهم فضلا على الناس إلا ما اختصهم الله تعالى به من الرسالة منًّا وفضلا، وما كان ذلك إلا لحكمة قدرها، أو كان فيهم بإرادة الله، فهو أوجد فيهم من المزايا ما يجعلهم أكثر من البشرية المطلقة التى يتصف بها العاصى والطائع، والرسول ومن أرسل إليهم.

أما كلامهم الثانى فى أمر المعجزة فقد طلبوا نعتا ولجاجة معجزة اختاروها، وأعلنوا أن لن يؤمنوا إلا إذا جاءتهم هذه الآية، كما فعلوا مع النبى ﷺ، وقد ردوا زعمهم هذا بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أى ما ساغ لنا ولا جاز أن نأتيكم بآية غير ما جئنا به إلا بإذن الله تعالى، فهو الذى منَّ علينا من بين عباده بالنبوة، وهو الذى اختار لنا الآية الدالة على رسالتنا كشأن كل رسالة من غائب لحاضر، أن الغائب هو الذى يختار الإشارة الدالة على أنه مبعوث من قبله، وقد اختار ذلك السلطان، فلا مناص لنا منه إلا أن يمن علينا بسلطان غير ما أعطانا، وإذا كنتم مستمرين على معارضتكم، ومقاومتكم، وإعناتكم وإيذائكم، فنحن قد بلغنا وفى سبيل البلاغ لا حامى لنا إلا الله تعالى؛ ولذا قالوا: ﴿... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ... (٨٩)﴾ [الأعراف]، أى إذا كنتم تعتمدون فى معاندتكم وإعناتكم على قوة لكم تحسبونها، فنحن متوكلون على الله يحمينا من إيذائكم، وقدم الجار والمجرور ﴿... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ... (٨٩)﴾؛ لبيان أنهم لا يعتمدون إلا عليه، وأنه فوق كل الأقوياء، وأمروا المؤمنين الذين يؤذيهم المشركون ويسخرون منهم بأن يتوكلوا على الله، ويصبروا فإنه لا محالة ينجيهم من إيذائهم وستكون كلمة الله هى العليا، وهو العزيز، ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وقدم الجار والمجرور للدلالة على أنه لا يعتمد إلا عليه سبحانه،

و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى إذا كنا معشر الرسل قد توكلنا على الله وحده فليتوكل المؤمنون على الله وحده، ويتضمن ذلك طلبين: أحدهما الصبر على أذى المشركين، والثانى: الاعتماد على الله وحده، وأنه سبحانه وتعالى ناصر الرسل ومن اتبعوهم غير خاذلهم ولا ممكن لمشرك منهم.

وبعد ذلك بين سبحانه على لسان رسله المسوغ لتوكلهم عليه وحده فجاء على لسانهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾.

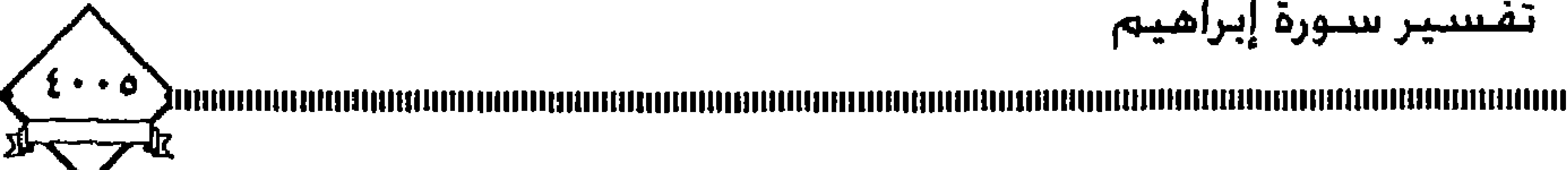
﴿ وَمَا لَنَا ﴾ الاستفهام هنا لتقرير التوكل وتثبيته، أى ما ساغ لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، أى سبيل الحياة الصالحة التى جعلتنا نؤمن بأن الحياة الدنيا طريق الآخرة، وأن الحياة الآخرة هى الحياة الحقيقية الباقية، **أما الأولى**: فهى الفانية، وقوله: ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ جملة حالية تفيد أولا أنهم آمنوا بهداية الله فعرفوا سبيل الحق وسبيل الباطل.

وأما الثانية: أنهم عرفوا بطلان عبادة الأوثان. **وأفاد ثالثا**: أنه لا قوة فى الوجود إلا قوته، وأضيفت السبل إليهم ﴿ سُبُلَنَا ﴾ للإشارة إلى أن هذه السبل هى التى ينبغى أن تكون مطلبهم وأن تكون غايتهم التى يبتغونها.

وأنهم إذا عرفوا السبيل صراط الله، واتخذوها سبيلا لهم فإنهم المعتمدون على الله الصابرون؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ اللام لام القسم؛ ولذا كانت معها نون التوكيد الثقيلة التى تلازم القسم ﴿ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ﴾، على ما تقدمونه من إيذاء متوالٍ مستمر، فإن على أهل الحق أن يصبروا على أذى المبطلين.

ولقد أكد الرسل والمؤمنون اعتزامهم على الصبر حتى يبلغوا رسالات ربهم.

وإنهم أمام هؤلاء الأقوياء المتعنتين لابد من اعتماد على القوى القادر القهار؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾، أى عليه وحده فليتوكل المتوكلون، كان الأمر الأول بالتوكل للمؤمنين فقط، أما هنا فهو يشمل المؤمنين



والرسل، وهو تحديد للتوكل الذى يجب أن يكون حال المؤمن لا يفارقه؛ لأنه التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب عبادة.

محاولة الإخراج

بعد أن كلَّت بهم الحجة ضاق صدرهم، فانتقلوا من الجدل الباطل إلى الإخراج من أرضهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

لا يلجأ أحد إلى القوة إلا إذا كَلَّ به الدليل، وأحس بأن ما يسوقه من قول يحسبه حجة انهيار أمام قوة الحق؛ ولأن أتباع الرسل دائما يكونون قلة وأكثرهم ضعفاء يستهين بهم المشركون؛ لأنهم أعز نفرا، وأشد بأسا، وأكثر تعنتا؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ انحصر كلامهم فى أن الرسل والمؤمنين يكونون بين أحد أمرين: الإخراج من أرضهم، أو أن يعودوا فى ملتهم فى عبادة الأوثان، وهنا أمران مهمان لابد من الإشارة إليهما .

أولهما: القسم، فمهما هددوا به الرسل، وقد أقسموا ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾ والقسم دُلَّ عليه باللام الموطئة للقسم ونون التوكيد الثقيلة، وهى بالنسبة لهم أوضح؛ لأنهم يملكون أعمالهم وأنفسهم فكيف يكون القسم بالنسبة للرسل، كأنهم يقسمون على الرسل والمعنى أنهم أخذوا قاسمين على أمرين لا بد من تحقق أحدهما، وهو لنخرجنكم أو لتعودون، ونحن نقسم عليكم بذلك.

الثاني: أن التعبير بـ ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ يوحى إلى أنهم كانوا فى ملتهم، وخرجوا منها وطلبوا أن يعودوا إليها، والرسل لم يكونوا فى ملتهم أبدا، فما كان الرسل ليشركوا بالله ويعبدوا الأوثان، والجواب عن ذلك من وجوه أولها: أن عاد بمعنى صار، وهى كثيرة الاستعمال فى اللسان العربى كذلك، وثانيها: أن ذلك ينطبق على أتباع الرسل، وثالثها أن حال الرسل قبل الرسالة تكون صمتا عن الشرك لا يعتقدونه ولا يقومون بالدعوة ضده، فيحسبهم الجاهلون من أهل الشرك أنهم معهم، فإذا جاءوا بعد البعث يدعونهم حسبوا ذلك جديدا على الرسل كما هو جديد عليهم، فطالبوا بأن يعودوا إلى ما كانوا عليه لا يزعجونهم بدعوة إلى الوحدانية ولا برسالة، ولا ذكر رسول.

وفى هذا الوقت الذى بلغ فيه العند أشده والكفر أطغاه ثبت الله قلوب رسله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أوحى الله إلى رسله قائلا لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، أو كان مدلول الوحى ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾: اللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة، وهى توكيد للقسم فضل توكيد، وأظهر سبحانه فى موضع الإضمار، فلم يقل لنهلكنهم، بل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، لبيان سبب الهلاك، وهو الظلم، وقد ظلم هؤلاء إذ لم يؤمنوا وأشركوا ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]، وظلموا فتعنتوا وطلبوا آيات آخرى وقد جاءتهم البينات، وظلموا بإيذاء المؤمنين وظلموا أشد الظلم فهمُّوا بإخراج الرسول ومن معه، وحاولوا فتنة المؤمنين ليكفروا بعد إيمان، ولم يتركوا بابا من أبواب الظلم إلا دخلوه ﴿... وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر].

وكان من وحى الله تعالى أنه بعد هلاك الظالمين يسكن الله الرسل ومن معهم مكانهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ والأرض هى أرض الدعوة التى هدد المشركون أن يخرجوهم منها، ولكن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر قبل أن يتمكنوا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ

الأرض ومغاربها ... (١٣٧)﴾ [الأعراف]، وكما قال تعالى: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم ... (٢٧)﴾ [الأحزاب].

وإن ذلك نصر الله تعالى فقد قال عز من قائل: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) إنهم لهم المنصورون (١٧٢) وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣)﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿... والعاقبة للمتقين (٨٣)﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾، ﴿مقامي﴾ مصدر ميمى، المقام بمعنى قيام، ومعنى قيام الله، ومعنى الخوف من مقام الله تعالى، أو قيامه على تدبير شئونه ـ رقابة كل أمور الإنسان بأنه لا يعمل عملا إلا والله تعالى يحاسبه عليه صغيرا أو كبيرا فيعبد الله كأنه يرى الله، فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه، وإن هذه مرئية الإحسان فى الشعور بالله تعالى، كما ورد عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ﴿وخاف وعيد﴾، أى خاف وعيد الله بالعذاب الشديد فهو يغلب الخوف على الرجاء؛ لأنه يستصغر حسناته ويستكثر سيئاته، وإنه ورد فى الأثر: «من آذى جاره ورثه الله داره».

المآل هو العذاب والخيبة

قال تعالى:

وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ

أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

﴿اسْتَفْتَحُوا﴾ طلبوا الفتح والنصر، والضمير يعود إلى الرسل، أى أن الرسل بعد أن اطمأنوا إلى وعد الله تعالى لهم بأنه مهلك الظالمين بسبب ظلمهم تقدموا لمنازلة المشركين، واستفتحوا كما كان يستفتح النبى ﷺ فى كل غزوة يغزوها، والفتح هو النصر، أى يطلبون النصر من الله تعالى، ويصح أن يكون طلب الحق بأن يفصل بين الحق والباطل، كما قال الله تعالى: ﴿... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف].

ويقول الزمخشرى: إنه يكون مشتقا من الفتح بمعنى الحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ بيان لنتيجة المعركة التى استفتح لها الرسل، والواو للعطف على فعل محذوف، تقديره، وفتح الله تعالى للرسل بأن نصرهم أو حكم لهم وخاب كل جبار عنيد، والكلية هنا معناها أن المتكبرين على الحق الجبابرة الذين يعتدون ويلجون فى الباطل، ولا يصغون إلى حق من أى مكان، مآلهم الخيبة، والخسران المبين؛ وذلك لأن الجبار يستعلى فيظلم، ولا نصر لظالم، والعنيد يركب رأسه، فلا ينصت لداع يدعو إلى التأمل وتعرف عواقب الأمور، فلا يرى إلا ما يكون بين يديه من أمور ظاهرة لا يتعرف ما وراءها، ويقول دائما مقالة فرعون: ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

ولقد قال بعض السلف: إن الضمير فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ يعود إلى الظالمين، أى الظالمين مع ظلمهم وطغيانهم يطلبون النصر، وذلك منهم إمعان فى الضلال الفكرى؛ إذ حسبوا ما عندهم خيرا يجيز لهم أن يستفتحوا من أجله.

وقال بعض السلف: إن الاستفتاح كان من الفريقين فريق الحق وفريق الضلالة، وفتح الله للمؤمنين وخاب الكافرون، وعبر عنهم بكل جبار عنيد للإشارة إلى سبب الخيبة، وهو الاستعلاء بالباطل واللجاجة فيه، ويقول تعالى فيما يستقبل كل جبار عنيد من عذاب أليم:

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . . ﴾ .

الضمير فى ﴿ مِّن وَرَائِهِ ﴾ يعود إلى كل جبار عنيد، أى أنه فى الدنيا خيبة، وعجز مع استعلاء وتجبر وعناد، وبعد ذلك فى الآخرة ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ يدخلها، ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ ﴾ هو صديد من قروح جلود أهل النار، ووراء تجىء بمعنى بعد، كما تقول عذاب وراء عذاب ولوم وراء لوم، كما قال النابغة الذبيانى.

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة　　　وليس وراء الله للمرء مذهب

أى بعد الله، وكما قال الشاعر:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه　　　يكون وراءه فرج قريب

كما تقول: جاءوا صفوفا صفا وراء صف.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ الواو عاطفة على فعل محذوف، تقديره من ورائه جهنم يبقى فيها، ويسقى من ماء صديد، وهو الماء الناتج من القروح التى تجىء من حرق جلودهم، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها حتى يذوقوا العذاب، وكأنه يستقبلهم من وراء عنتهم ولجاجتهم عذابان: أحدهما: الإبقاء فى جهنم وهو ذاته عذاب، إذ يكون لهيبها، والعذاب الثانى: أنهم لا يرتوون إلا بماء شربه ذاته عذابه أليم، وهو الصديد، وقد وصف سبحانه وتعالى شربه فقال:

﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾ .

يطلبون الماء فيجابون، ولكن سقوا ماءً حميما فقطع أمعاءهم، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه، فإذا استسقوا جاءهم ماء، هو صديد يجتمع فيه قبح ذاته وحرارته، وأنه يقطع الأمعاء، ولكنهم مع ذلك يشربونه لأنهم عدموا الرى، فلا رى سواه ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أن يحاول شربه بأن يتجرعه جرعة جرعة ولا يطيق أن يشربه شربا مع رغبته فى الماء ﴿وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يقال: ساغه، أى شربه مستطيبا له مسيغا له، أى مرَّ فى حلقه بسهولة، وكذلك أساغ، أو نقول: أساغه حاول أن يجعله يمر فى الحلق سائغا ولا يكاد يستطيع ذلك، فقد اجتمع فيه ما ذكرنا من قبح الذات والمنظر والحرارة وشأنه ليس بمرىء، وقد وصف الله تعالى حالهم، فقال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فالموت يأتيه من فوقه، ومن تحته، ويقول بعض الصالحين ناقلا عن المأثور: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكِّل به نوع من العذاب لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها، أى أن أسباب الموت تتضافر عليه فلا يموت، وإنه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (١٣)﴾ [الأعلى]، فهى حياة هى الفناء، بل إنه لو كان الفناء لكان خلاصها.

﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ﴾ أما بعد تلك الحياة الشديدة الغليظة التى لا تُفنى، ولا تُبقى، من بعدها عذاب شديد ﴿غَلِيظٌ﴾ يجمع بين صفتين: الشدة والغلظ، فيكون أقسى العذاب؛ لأنهم تمتعوا بالشر والأذى والاستكبار فكان ذلك العذاب جزاءً وفاقا لما قدموا.

وقد بين الله تعالى مع ذلك أن ما يفعلون من نفع فى الدنيا لأنه ينقصه الإيمان، يذهب هباء، فقال عز من قائل:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾.

المثل: الصفة الغريبة، وغرابتها ليست فى ذاتها فقط، إنما كانت غرابتها لأنها جاءت على خلاف ما يزعمون، إذ يزعمون أولا: أن أوثانهم ستكون شفيعة لهم، وكانوا يفعلون أمورا يحسبونها من مكارم الأخلاق كإكرام الضيفان وإغاثة الملهوف أحيانا، كما فعل بعض كبرائهم فى حلف الفضول، ويحسبون ذلك عملا طيبا، ولو كان مقصده المفاخرة والمباهاة. ثانيا، ويرون أنهم الكبراء الذين لا تُنسى محامدهم ثالثا، لكنهم يرونها يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾، أى حال الذين كفروا بربهم، أى جحدوا بربهم الذى خلقهم وأنشأهم وقام على شئونهم وربَّهم وحفظهم، حالهم الغريبة أعمالهم كرماد اشتدت به الريح، وفى قراءة الرياح، وهذه الجملة هى الخبر أو دالة عليه.

وقد شبه الله سبحانه وتعالى أعمالهم بالرماد الذى تأتى عليه ريح عاصفة شديدة الهبوب فتثيره فتكون رمادا يتبدد، يغبر به الجو، ثم لا يبقى منه شىء، إلا الغبار الذى يصيب أعينهم ويفسد جوهم، والريح هو العاصف، ولكن وصف اليوم بأنه العاصف من باب إطلاق الزمن على اسم ما يحل فيه، كيوم ماطر، ويوم صائف، ويوم صائم.

وذلك لاستغراق عصف الرياح لليوم كله، حتى كأنه اليوم الذى اتصف بالعصف وليس غيره.

وقوله تعالى: ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ مشتقة من الشدّ بمعنى العدو، كقولهم شد عليه بمعنى عدا عليه وغلبه، أو مشتقة من الشدة، وهو الأظهر، والباء للتعدى، أى اشتدت فيه الريح وفى قراءة الرياح.

وقوله تعالى: ﴿لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قدم ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ على ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ للاهتمام بما كسبوه فهم كانوا يحسبونه شيئًا من المكارم، والأعمال الصالحة فلا يجدونه شيئًا؛ وذلك لأنه فقد المؤثر النفسى وهو الإيمان، وقصد الخير

لذات الخير للمفاخرة والمباهاة وإثارة العصبية، والمفاخرة، ومعنى ﴿لاَّ يَقْدِرُونَ﴾ لا يملكون، يكون في مقدورهم أن ينتفعوا به؛ لأنه صار منثورا لا يقبض عليه، كما قال تعالى في آيات أخرى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران]، وتلك النهاية هي غاية البعد من الحق والضلال البعيد في الضلالة.

وقد بين سبحانه أن الجزاء الأوفى يكون يوم القيامة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾.

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أي للنفي، وهو داخل على النفي (لم) ونفي النفي إثبات وهو إثبات مؤكد، كأنه استفهم فكان الجواب هو الإثبات، وتأكيد أن الله خلق السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي متلبسا بالحق في ذاته، وبأنها لم تخلق عبثا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ وبأنها ثابتة دائمًا ثبات الحق، فوضع لها نظما، وسننا ونواميس تجعلها مربوطة برباط محكم، فأقام السماء بغير عمد ترونها وزينها بزينة الكواكب.

وكما قال تعالى: ﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾ [ص]، ما خلق الله ذلك إلا بالحق.

وقوله تعالى: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أن هذا الذى أنشأ السموات والأرض ولم يعىَ بخلقهن قادر على أن يذهبهم وأن يفنيهم، فالإفناء أسهل من الإنشاء ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وإن الإتيان بجديد مثلهن القدرة عليه ثابتة بالمقايسة، فمن قدر على الإنشاء قادر على الإنشاء الثانى ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾، أن ليس ذلك الإنشاء الثانى بعزيز، أى متعذر أو متعسر عليه سبحانه، فهو سبحانه وتعالى قادر بذاته، لا يختص بابتداء ولا إنشاء من جديد، فالقدرة ثابتة، ومتى يثبت لا يعز شىء عليه ولا صعب.

وفى هذا الكلام بيان أن الله سبحانه وتعالى قادر على الإعادة؛ لأنه قادر على الإنشاء من جديد، كما قال سبحانه: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ [الأحقاف].

وكما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾ [يس].

وإن الآية تفيد بإشارتها ترهيب المشركين بأنهم لا يعجزون الله، فإنه يستطيع إهلاكهم، وخلق غيرهم.

وإنهم فى قبضة الله فى الدنيا، وجزاؤهم عنده فى الآخرة، وهو يتولى الجزاء بالإحسان لمن أحسن وبالعذاب لمن عصى.

ما بين التابع والمتبوع والشيطان

قال الله تعالى:

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

هاتان الآيتان تصوران المجاوبة التى تكون بين العصاة وأولهم الشيطان الذى أقسم ليغوين الناس إلا عباد الله المخلصين، والطبقة التى استغواها ابتداء المتبوعون من ذوى الاستكبار والاستعلاء على الناس بالجاه الدنيوى والمال والعزة، وهؤلاء يؤثرون فى غيرهم فتكون الطبقة التابعة والإمَعات[1] الطائعة.

صور الله سبحانه أقوال التابعين للمتبوعين وابتداء من الدنيا فى العصيان إلى من أخذوهم إلى الضلال، فقال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أى ظهروا أمام الله جميعا وقد عصوه، إذ أشركوا به أندادا لا تنفع ولا تضر، وذلك بعد أن بعثهم الله تعالى، وأنشرهم من قبورهم وجمعهم يوم الحشر فكانوا أمام الله، وقد كذبوا بلقائه، وقالوا: ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... ﴿٥﴾﴾ [الرعد]، والتعبير بـ﴿بَرَزُوا﴾ فيه تذكير بالعيان لبطلان أقوالهم فى الدنيا، وجميعا: إشارة إلى أنه قد جمع التابع والمتبوع والأبيض والأسود، والعربى والأعجمى، وكانوا بين يدى الله وحده، وكانت المجاوبة الآتية: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ الضعفاء: جمع ضعيف، والضعيف يشمل ثلاثة أنواع ممن يتصفون بالضعف:

(١) جمع إمعة: وهو من يقلد غيره فى قوله أو فعله.

أولهم: الأرقاء والفقراء والأرذلون فى معيشتهم فى الدنيا، الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا وفيهم ذلة لم يزيلوها بالإيمان.

وثانيهم: الضعفاء فى تفكيرهم الذين يرضون بأدنى فكرة ويتبعون غيرهم اتباعا من غير دليل، بل فى استكانة، وإن كانوا أقوياء فى مالهم فهم ضعفاء فى نفوسهم.

وثالثهم: الذين يتبعون القوة دون دليل.

يقولون للذين استكبروا من الكبراء ذوى الوجاهة والقيادة فى الضلال: ﴿**إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا**﴾، وتبع جمع تابع، أو مصدر نعت به، ويكون معنى التعبير هو الإيغال فى التبعية كأنهم لا وجود لهم ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ الفاء تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها، أى بسبب هذه التبعية هل أنتم مغنون عنا عذابا من عذاب الله من شىء ﴿**مِنْ**﴾ الأولى للتبعيض، ومن الثانية للاستغراق، والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع، أى لستم مغنون عنا بأى قدر من عذاب.

أجاب الذين استكبروا عن الحق، فقد أجابوا عن هذا الاستفهام الإنكارى، الذى لا يخلو من معنى التوبيخ والملامة حيث لا لوم قائلين: ﴿**لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ**﴾، والمعنى أننا على سواء، لو هدانا الله إلى الحق لهديناكم إليه ولكنا ضللنا فضللتم، وإنكم إذ كنتم تبعا لنا فارتضوا بما وقع لنا، ولا يخلو هذا الكلام من إلقاء اللوم عليهم فى التبعية من غير تفكير وتبرير، وكأنهم يشيرون إليهم إلى أنهم كان عليهم أن يتبعوا عن بينة.

ثم يقولون لهم: إننا وقد وقعنا فى الضلال علينا أن نذوق مغبتها طائعين؛ لأننا مجبرون، وفى آية أخرى صرح الكبراء فقالوا: ﴿ ... **فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** (٣٩) ﴾ [الأعراف].

وفى هذه الآية يقولون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ سواء معناها يستوى علينا جزعنا أم صبرنا، فالجزع لا يحول الشر عنا، والصبر لا يمنع الأذى. وقد فسروا هذه التسوية بقولهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، أى منجاة من العذاب، أو مهرب منه أو مُتَحول من هذه الحال إلى غيرها، ومحيص: من حاص حيصا، وهو التحول، أى مالنا من تحول، ومحيص هنا إما أن يخرج القول على أن محيص اسم مكان، ومكانهم جهنم، أى ما لنا تحول عن هذا المكان، أو مصدر ميمى، أى ما لنا تحول عما نحن فيه، فالأمر لله.

تلك هى المجاوبة التى بين التابع والمتبوع، والشيطان مصدر ضلالهم وإغوائهم وهو كالمتفرج عليهم ولكنه غير ناج: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أى أحكم وفصل فيه، ولم يكن لحكم الله مرد ولا نقص، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾، أى وعد هو الحق، فالإضافة بيانية، أى الأمر الصحيح الثابت الصادر من مالكه، وهو الذى يجازى عليه بالثواب وعلى مخالفته بالعقاب، والفعل فى ذاته نفع لا ضرر فيه، وخير لا شر فيه، وكان عليكم أن تطيعوه، ولا تخرجوا عليه.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ولم يذكر وصف وعده؛ لأنه مفهوم من وصف الأول بأنه الحق ومقابله باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال، وترك لأنه مفهوم من السياق، ولكى تذهب مذاهب فيما يعد به الشيطان إنه لا يعد إلا بما يكون من ورائه الفساد والبوار، والعبث والشر، فهو ليس باطلا فقط بل أكثر من باطل إمعانا فى الشر، وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، أى منيتكم الأمانى الباطلة، وأودعت نفوسكم الأوهام، وزينت لكم السوء لتحسبوه أنه حق، وإسناد الإخلاف إليه ـ لعنه الله تعالى ـ مع أن الإخلاف من الله تعالى، وبيان كذب ما وعد وألقى به فى أمنية الناس؛ لبيان أنه وهو يعد يعلم أنه باطل وأنه إغواء، فكأنه هو الذى أخلف لأنه يعلم أنه كذب لا حقيقة بل هو وهم وضلال.

بعد ذلك اتجه الشيطان لتبكيتهم لأنهم أطاعوه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾، أى أجبتم دعوتى الخالية من أى تسلط أو دليل طالبين ذلك مجيبين له، فما كانت تبعة طاعتكم لى علىَّ، إنما كانت عليكم؛ ولذا قال: ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ لقد كان أمامكم أمر الله، وهو الخالق المنشئ، ودعاكم إلى الحق، ومعه الأدلة الثابتة وأمامكم دعوتى الخالية من البرهان والدليل، وليس لى عليكم قوة مهيمنة إلى وسوسة خفية فأطعتمونى وعصيتم ربكم.

وهذا شأن أتباع إبليس دائما يقعون فى الشر ثم يلومون من أوقعوهم لأنهم أطاعوهم، وإن الشيطان له عذاب، وهو يصرخ بأنه فيه، وإنه لا يستغيث؛ لأن أحدا لا يغيثه ولا يستطيع أن يغيث أحدا؛ ولذا جاء على لسانه قوله: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ المصرخ هو المجيب للمستصرخ المغيث له، والصارخ هو المستغيث والمعنى بمستطيع إغاثتكم وما أنتم بمستطيعين إغاثتى، فالعذاب نازل بنا، وعلى كل أن يتحمل مغبة ما عمل وما اعتقد وما وسوس به من شر.

وقد أعلن ضلاله وضلالهم بقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾، (ما) هنا مصدرية أو موصولة ولا يختلف المعنى فى التقديرين، والمعنى: إنى كفرت بالذى أشركتمونى فى عبادتكم من قبل، أى كفرت الآن بشرككم فى الدنيا، وآمنت بالله تعالى وحده لا أشرك به شيئًا، وقال: أشركتمونى مع أنهم ظاهرا ما كانوا يشركون الشيطان بل كانوا يشركون أوثانا. فلِمَ نسب إليه أنهم كانوا يشركونه؟ والجواب عن ذلك أن عبادتهم الأوثان كانت بوسوسته هو وتسويلهم، والأصنام لا حقيقة لها، فكأنهم كانوا يشركونه بالله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿كَفَرْتُ﴾ تفيد أنه يكفر الآن، مع أنه وهو الذى يزين عبادة الأوثان يعلم أن الله وحده هو المستحق للعبادة، ولا معبود سواه، وأن عمله إغواء وإضلال، فهو غير مؤمن بها من قبل، والجواب عن ذلك: أنه الآن يعلن كفره بها.

ويقول الله تعالى واصفا العصاة بالظلم: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تحتمل هذه الجملة السامية أن تكون تتميما لكلام إبليس، وتحتمل أن تكون من الله لبيان استحقاق العصاة جميعا للعذاب، وأرى أن الاحتمال الثانى هو الحق، فهو بيان لتسجيل العذاب المؤلم فى ذاته عليهم بسبب ظلمهم تابعين ومتبوعين ومغويهم معهم، فهم ظلموا الناس، وأفسدوا فى الأرض فحقت عليهم كلمة العذاب.

أهل الجنة

قال الله تعالى:

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾
تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ
اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

بعد أن صور الله تعالى حال العصاة، وشيخهم إبليس ليعلم المؤمنون مآل العصيان فيجتنبوا أسبابه فى الدنيا، بين سبحانه ما ينتظر المؤمنين تشجيعا لهم ليستمروا فى طريقهم وهو طريق الحق، فقال سبحانه: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ البناء للمجهول، ومن الذى أدخلهم، أى ما الفاعل الذى لم يذكر وبنى للمجهول، قالوا: إن الفاعل هم الملائكة، وإن ذلك سائغ مستقيم، ويصح أن تقول: إن الله سبحانه هو الذى أدخلهم، ولكن لم يذكر لفظ الجلالة للإشارة إلى أن ذلك جزاء عملهم، فالبناء للمجهول يؤدى إلى هذا المعنى وهو ترتيب الإدخال فى الجنة على أعمالهم، وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، أى برضاه وأمره، وما رتبه من أن لكل نفس ما كسبت، وقد ذكر سبب دخول الجنة فى صلة الموصول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فسبب دخول الجنة أمران: الإيمان وهو بالحق وتصديقه والإذعان به، والعمل الصالح، وقال تعالى:

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أى الأفعال الصالحة من أداء الفرائض، والصح وصف عام لكل عمل هو نافع لذاته، وقصد به وجه المنفعة للناس، فالصاحات تشمل كل الفرائض الشرعية والعمل الطيب والقول الطيب.

ولا نتعرض لكون العمل جزءا من الإيمان أولا، إنما نقول: إن ما تنطق به الآية ومثيلاتها أن العمل جزء من استحقاق الثواب الذى أعد للمؤمنين.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بأنها النعيم المقيم، فالأنهار تجرى من تحتها، أى أن الأنهار تجرى من تحت الأشجار، فتجرى فيها متخللة أشجارها فيكون المنظر بهيجا، وتكون متعة النفس بالظلال، ومنظر الماء يجرى، والخضرة التى تسر النفس، وتمتع القلب.

ويكون مع ذلك الأنس الروحى بالائتلاف والأمة والسلام؛ ولذا قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ يتبادلون التحية، وليس تلاوما أو تأثيمًا، كما يجرى بين أهل النار بين التابع والمتبوع والشيطان من ورائهم.

وإن الفرق بين الإيمان والكفر أمران: أولهما الإيمان، وثانيهما كلمة الحق، وإن كلمة الحق تهدى إلى البر والإيمان؛ ولذا مثَّل الله تعالى كلمة الحق، وكلمة الكفر بمثلين، فقال تعالت كلماته:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾.

الاستفهام لإنكار الوقوع بمعنى النفى، وقد دخل على (لم) وهى للنفى، ونفى النفى إثبات، والمعنى، لقد ترى كيف ضرب الله مثلا.... والإثبات على هذا النحو يدل على تأكيد الإثبات والتنبيه وتوجيه النظر إليه.

والعلم متجه إلى الحال والكيف، قال: ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً... ﴾ أى لقد ترى الحال فى ضرب الله المثل، ضَرَب بمعنى بيّن، والمعنى: كيف بين مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ فى الأرض بجذورها الممتدة فى عروق الأرض، ثابتة بثبات هذه الجذور، ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾، أى غصونها ممتدة فى السماء، وكلما علت الشجرة فى السماء وامتدت فروعها فيها كثرت ثمراتها، وتدلت مع فروعها، والمراد من الفرع الفروع كما فى بعض القراءات، أى فروعها فى السماء.

ثم وصف سبحانه طيب هذه الشجرة فوق ما وصف بأن ثمراتها دائمة لا تنقطع، فقال تعالى: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾، أى تؤتى ثمراتها فى كل حين، وإيناعها بإذن ربها.

والشجرة هى المشبه به، وقد وصفها سبحانه بأنها طيبة، وطيبها فى أنها ثابتة الأصل، وبأنها مرتفعة، وبأنها تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

هذا هو المشبه به، فأما المشبه: هى الكلمة الطيبة، والكلمة الطيبة فيها عناصر الطيبة التى ذكرت فى الشجرة، فهى كلمة النفس والقلب والعقل، تنبع من القلب والعقل فقال بإخلاص لله تعالى، وهو الحق، وإنها إذ تقال تعلو بصاحبها

عن سفساف الأمور، وتتجه به إلى معاليها، فهى ترفع صاحبها ولا تهوى، وهى هادية مرشدة ممتدة النفع تؤتى ثمراتها كل حين، والكلمة الطيبة تبقى ببقاء الأنفس المتبصرة المدركة، فالكلمة حياة تحيى النفوس والأفئدة.

وما الكلمة التى تتحقق فيها هذه المعانى؟ قيل: إنها كلمة التوحيد، وقيل: إنها الإيمان، والحق أنها الكلمة التى تكون صادقة فى ذاتها ومنبعثة من النفس لإرضاء الله تعالى، والذود عن محارمه وتتحقق فيها النية الطيبة، والقول الطيب، كما قال تعالى: ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)** ﴾ [الحج]، وروى من حديث أنس أن النبى ﷺ قال: «**إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة، الإيمان فروعها، والصلاة أصلها، والزكاة فروعها، والصيام أغصانها، والتأذى فى الله نباتها، وحسن الخلق ورقها، والكف عن محارم الله ثمرتها**».

ولقد قال تعالى: ﴿ **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾، أى الأمور المتشابهة بين بعضها البعض، فيبين المعنوى بالحسى حتى يصير كأنه محسوس مرئى، ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك البيان ليرجوهم أن يتذكروا ويعتبروا، فالرجاء ليس من الله تعالى الذى يعلم كل شىء ولا يغيب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

هذا مثل الكلمة الطيبة وهى كلمة الحق الجامعة لكل معانى الخير والطيب، والكمال والجمال، أما الكلمة الخبيثة فقد قال تعالى فى مثلها:

﴿ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)** ﴾

الكلمة الخبيثة هى الكلمة التى تنبعث من خبث النفس، وضلال الفكر، وتكون فى باعثها أثمة، وفى غايتها أثمة فهى على نقيض الكلمة الطيبة؛ لأنها لا تنبعث من إخلاص لله ولرسوله، ولا تكون طيبة فى واقعها، ولا فى نتائجها، وما يترتب عليها، وأوضحها الكذب، وقد قال النبى ﷺ: «**عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا،**

وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[١].

والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة التى لا فائدة منها ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾، أى أنها ليس لها جذوع ممتدة فى باطن الأرض، بل هى على سطحها، ومعنى ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾ أى ظهرت جثتها من فوق الأرض فليس لها جذور تمتد فيها كبعض أنواع النباتات التى ليس لها جذور تغوص فى عروق الأرض، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، أى استقرار وثبات فى باطن الأرض، والمؤدى من هذا التشبيه أن الكلمة الخبيثة لا تعيش فى الوجود، وليس لها بقاء فيه، بل إنها تنتهى بانتهاء زمانها وتنزل من الأضرار بمقدار وقتها، كالسعاية والنميمة والكذب والخديعة والغيبة، وليس لها وجود إلا بمقدار زمانها وقد تضر، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها وبىء، ولا تبقى إلا الكلمة الطيبة، وما يكون لله وللحق وحده.

وعن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة؟ فقال: «ما أعلم لها فى الأرض مستقرا ولا فى السماء مصعدا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها ربه يوم القيامة»، اللهم جنبنا خبث القول، واجعلنا من الذين قلت فيهم: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج].

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾.

يثبت الله الذين آمنوا بأن يلقى فى روعهم الاطمئنان إلى الحق والجزم به والنطق بمقتضاه، والثبات عليه لا يحيد عن النطق بالحق والعمل به، والرضا بنتائجه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، ولقد قرر العلماء أن صاحب النفس المطمئنة الراضية بحكم الله المنفذة لتكليفه يلقى الله فيها بالإخلاص، والإخلاص لله يجعل النفس تشرق بنور الله، فتدرك فتؤمن فتقول الحق وتعمل

---

(١) سبق تخريجه.

به، ويكون من بعد ذلك السلوك الاجتماعى المستقيم بأمر الله ونهيه، فمعنى ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ القول الذى يقوم على دعائم الحق، ولا يتزلزل لباطل، ويصح أن نقول: إن الثبات صفة لصاحب القول، وأضيفت إلى القول؛ لأنه لا يثبت القول إلا بثبات صاحبه الذى لا تزلزله عوابث الهوى ولا أوهام الشيطان، وما أحكم ما قاله الزمخشرى إذ يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القول الثابت هو الذى يثبت بالحجة، والبرهان فى قلب صاحبه، وتكمن فيه فاعتقده، واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به فى الدنيا أنهم إذا فتنوا فى دينهم لن يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم، وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقداتهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر».

هذا كلام صدق، وإن القول الثابت كما يشمل الصبر فى العقيدة يدخل فى عمومه الثبات على الحق فى نصيحة الحاكم، والامتناع عن قول الباطل مداهنة له، ويقول للحاكم الظالم: اتق الله، ويكررها كلما اقتضت الحال قولها فى غير مواربة، إلا إذا كانت الحكمة أن يداور لأجل إيصال الحق إلى قلب الحاكم، وتسويغه فى نفسه، فللقول سياسة، وللعلم سياسة، ومنها تسويغ الحق ليهضم معناه، وخصوصا فى أزمان الفساد كالزمن الذى نعيش فيه، ولعل الإمام الزمخشرى عاش فى مثله، وما ضيع المسلمين إلا سكوتهم عن القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ معنى إضلال الظالمين أنهم إذا ساروا فى طريق الضلالة أوغلوا فيه ولا يردهم سبحانه وتعالى عنه بل يزكيهم سبحانه يسيرون فيه إلى نهايته، ووصفهم بالظالمين فيه إشارة إلى أنهم يبدءون بالسير فى طريق الظلم الذى يشمل الظلم فى الاعتقاد بالإشراك، والظلم للنفس بارتضاء طريق الشر، والظلم للناس فى معاملاتهم، وفتنة الناس فى دينهم وإيذائهم فى اعتقادهم.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لأنه المختار المريد، لا يسأل عن يفعل وهم يسألون.

ويلاحظ أن لفظ الجلالة ذكر مرتين فى جملتين متعاقبتين، ولم يكتف بالإضمار بل أظهر فى موضعه، فقال سبحانه: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ وذلك لتربية المهابة أولا، ولبيان كمال سلطانه ثانيا، وتأكيد إرادته المختارة ومشيئته الحكيمة ثالثا، والله ولى الإنعام.

جزاء كفر النعمة وجزاء مكرها

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

التبديل معناه التحويل، أو جعل شيء بدل شيء، ومعنى تبديل نعمة الله كفرا فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أنهم جعلوا بدل النعمة التى تستوجب الشكر كفرا، فالذين أُعطوا نعمة بدل أن ينتفعوا بها فى وضعها موضعها من الشكر عليها كفروا بها، وكثيرون من ذوى النعم الذى أنعم الله عليهم بالثراء استعلوا به فجعلوه كفرا، ومن أنعم الله تعالى عليه بجاه فى الدنيا بدلوه كفرا، فاستغلظوا واستعلوا، وجعلوا جاههم غطرسة وكبرا، وبطروا معيشتهم.

وكذلك أهل مكة فى الجاهلية أكرمهم الله تعالى بمقامهم حول البيت الحرام، وتلك نعمة أنعم الله بها عليهم، فبدل أن يقوموا على سدانته وطهارته وضعوا عليه الأوثان، فاستبدلوا بالنعمة كفرا، وكذلك أنعم الله عليهم وعلى البشرية ببعث محمد ﷺ، فبدلوا كفرا وعاندوه وآذوه وأصحابه، وأنعم الله تعالى عليهم برحلتى الصيف والشتاء، وأن تكون مكة وسط البلاد العربية تغدو منها المتاجر وتروح إليها بين اليمن والشام فبدلوها كفرا، واتخذوها ربا الجاهلية، وأكلوا السحت، وكذلك اليهود بدلوا نعمة الله إلى كفر، أعطاهم الله تعالى علم الكتاب فغيروا وبدلوا واستطالوا على الناس، وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وظلموا الناس وأكلوا أموالهم سحتا ورشوة، وقالوا: ﴿... لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ... (٧٥)﴾ [آل عمران]، وهكذا.

ولذا نقول: إن الآية عامة تشمل كل من أنعم الله عليه بنعمة، فبدل أن يضعها فى موضعها يتخذها أداة للطغيان والضلال، فتكون كفرا، وأنهم بسبب ذلك الطغيان الذى يستخدمون النعمة طريقا له ويكفرون ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، أى الهلاك، أى ينزلون قومهم من عزة الإنسانية إلى الذل فيكون ذلك طريقا لانحدارهم إلى الهلاك، وأصحاب النعم التى يكفرونها هم الذين يفسدون أقوامهم، ويأخذونهم إلى حيث الفناء، وفناء الأمم والأقوام بشيوع الكفر والجحود فيها.

وقد قال الزمخشرى: «إن تبديل النعمة كفرا، معناه تبديل شكر النعمة كفرا، وقد ذكر وجوها كثيرة فقال: ﴿بدلوا نعمت الله﴾، أى شكر نعمة الله ﴿كفرا﴾؛ لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدلوه تبديلا ونحوه ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون (٨٢)﴾ [الواقعة]، أى شكر رزقكم؛ حيث وضعتم الكذب موضعه، ووجه آخر، وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفرا على أنهم لما كفروها سُلبوها، فبقوا مسلوبى النعمة، موصوفين بالكفر حاصلا لهم بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله تعالى حرمه، وجعلهم كرام بنبيه فأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة كذلك حين أُسروا وقُتلوا يوم بدر، وقد ذهبت عنهم النعمة، وبقى الكفر طوقا فى أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه هم الأفجران من قريش، بنو المغيره، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية، فمتعوا حتى حين». هذه وجوه ذكرها إمام البيان الزمخشرى، ونحن لا نقيد عموم القرآن ببلد أو جماعة إلا أن يكون لفظ الكريم، يوحى بالتخصيص بدل التعميم، واللفظ هنا فيه بيان لأحوال النفوس الإنسانية عندما تحيد عن أمر ربها، وخلاصة الوجوه بعد إخلائها من التخصيص بقوم أو قبيل أنها تتجه إلى أن التبديل فى الشكر، فيكون الكلام على حذف مضاف، بدلوا شكر النعمة كفرا، أو يكون التبديل فى ذات النعمة فلم ينتفعوا بها الانتفاع الطيب وبدلوا كفرا.

وبذلك سرى الفساد إلى أقوامهم فأحلوهم دار الهلاك فى الدنيا بالذل والهوان وفى الآخرة بجهنم؛ ولذا قال تعالى: ﴿جهنم يصلونها وبئس القرار (٢٩)﴾.

جهنم عطف بيان لدار الهلاك، وأن هلاك أشد من النيران يصطلون بها، يحيط بهم حرها الشديد ويكونون وقودا لها، وإنها تكن أسوأ نهاية؛ ولذا ذمها الله

فقال تعالت كلماته: ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، أى بئس المقر الدائم، فالقرار مصدر أريد به المكان، فالذم للمكان، أو الذم لذات القرار فى جهنم، وهو الحال التى انتهوا إليها.

وقد ذكر الله تعالى أشد الكفر الذى بدلوا به نعمة الله تعالى، وهو اتخاذ الأنداد شركاء له فى العبادة فقال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾.

الواو عاطفة على ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، فقد بدلوا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وجعلوا لله أندادا، وجعل الله سبحانه وتعالى الأصل، وهو تبديل نعمه التى أنعم الله بها نعمة تجزى، فجعلوها كفرا هو الأصل لكل مآثمهم، ونتيجة عقوبته؛ وذلك لأن الانغماس فى الأهواء والاستطالة بها سبب الشر ونسيان الله تعالى، ومن نسى الله تعالى كان منه الانحراف الفكرى والاعتقادى، والانغماس فى الشهوات.

﴿وَجَعَلُوا﴾ معناها اتخذوا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وأنداد جمع ند، وهو المماثل، وهذه الأوثان بالبداهة ليست أندادا مماثلة لله جل جلاله، ولكنهم اتخذوها أندادا بأوهامهم وأهوائهم وفساد تفكيرهم؛ إذ كيف تكون الأحجار التى لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع أندادا لله، ولكنهم جعلوها كذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ فيها قراءتان: إحداهما بضم الياء والثانية بفتحها، والأولى قراءة كثرة القراء، والثانية قراءة من دونهم عددا وهما متواترتان، ونحن نعدهما كلتيهما قرآنا لا ريب فيه، ويكون المعنيان صحيحين ما داما غير متعارضين، ولا يمكن أن يكون ذلك فى قراءتين متواترتين.

فالمعنى ليضلوا عن سبيل الله تعالى بذلك الجهل الذى جعلوا فيه الأحجار أندادا لله تعالى، فإنه ذاته هلاك، وعاقبته ضلال، إذ العاقبة دائما من جنس مؤثراتها والنتيجة دائما من جنس مقدماتها.

وهم إذا ضلوا بهـا يعملون على إضـلال غـيرهم بالفـتنة فى الدين، وإيذاء المؤمنين وسب دعاة الحق، والسخرية منهم.

وقد يقـول قائلهم: إنهم اتخذوها بغـير الضلال، ونقـول: إن النتيجـة كان الضلال أو الإضلال، ولذلك قـالوا: إن اللام لام العاقبة لتكون النتيـجة ضلالهم بها؛ وإضلال غيرهم لتقديسـها؛ وذلك أنهم صنعوا حجارة على أشكال آدمية، ثم توهموا فيها قوى خفية، ثم عبدوها ضلالا بها.

وقد أمر الله تعالى نبيه الأمين بأن يقول: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ إن الذى أغراهم بعبادة الأحجار واتخاذها أندادا لله هو ضلال عقـولهم وانغماسهم فى الأهواء والشهوات مما جعلهم لا يفكرون فى حقائق الأمور ويستمتعون بأهوائهم، فأمر الله تعالى نبيه بأن يقول: ﴿تَمَتَّعُوا﴾، أى استـمروا فى تمتـعكم وأهوائكم ومفاسـدكم الفكرية والتفـسيرية، وليس هذا أمر للطلـب بل للتهديد، أى استـمروا فإن مصـيركم إلى النار، فالعبرة بالنتيجة لا بصـيغة الأمر كما فى قوله ﷺ: **«إذا لم تستح فاصنع ما شئت»**[1]، والنتيجـة الاندحار فى مفاسد الأخـلاق والأهواء إلى أراذل الأعمال، وقال الزمخشرى: «إن الأمر هنا إيذان بأنهم لانغماسهم فى التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره، ولا يريدونه مأمورين قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه، ولا يملكون أمرا دونه، وهو أمـر الشهوة، والمعنى: إن دمـتم على الامتثـال لأمر الشهوة فإن مصيركم إلى النار»[2].

أى أن الأمر ليس من الله والنبـى ﷺ، إنما الأمر من آمر هو الانسـياق وراء الأهواء والشهوات، فكأنه أمر أُمروه، واتبعوه، وكان مآلهم إلى النار.

هذا شأن الذين بدلوا نعمة الله كفرا واتخذوا الأنداد، أما شأن الذين أدركوا النعـمة وشكروها ولم يكفـروها فإنهـم لا يضلون فى ذات أنفسـهم، ولا يضلون غيرهم بل يكون منهم الخير والطهارة لأنفسهم ولجماعتهم؛ ولذا قال عز من قائل:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الكشاف: ج٢/٣٧٧.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾.

الأمر للنبى ﷺ فى مقابل الأمر للكافرين بأن يتمتعوا بالعاجلة، فالآجلة مصيرهم فيها إلى النار، والأمر للمؤمنين هو أمر بثمرات إيمانهم، وعبر عن المؤمنين بـ (عبادى) للإشارة إلى أنهم قاموا بحق العبودية، فلم يشركوا مع الله أحدا، وأخلصوا الذات، وأعطوا ما هو حق على العبد أن يؤديه.

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أى (أنْ) هنا محذوفة وهى تفسيرية تفسر مضمون القول، قل لهم أن يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقنهم سرا وعلانية.

أو نقول: «إن قوله تعالى: ﴿يُقِيمُوا﴾ خبرية على أنها جواب الأمر، أى قل لهم تكليفات الله ليقيموا الصلاة، ويرى الزمخشرى أن تكون ﴿يُقِيمُوا﴾ بمعنى ليقيموا الصلاة، والمعنى على ذلك قل لهم مبينا أحكام الشريعة وهديها، وخص الصلاة والزكاة أى الإنفاق؛ لأن الصلاة للتهذيب وإقامتها استشعار للربوبية، وهى عمود الدين، ولا دين من غير صلاة، والزكاة - أو الإنفاق - فيها التعاون؛ ولذا تسمى «الماعون»، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون].

الإنفاق فى السر سترا للمتجملين من الفقراء حسن فى ذاته، والإنفاق علانية للاقتداء ونشر التعاون، وكل فى موضعه حسن.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ ليتدارك التقصير بتعويض يقدمه أو فدية يفتدى بها نفسه، ولا مخالَّة وصداقة ينقذ بها الصديق صديقه، والرفيق رفيقه، وقد قال تعالى فى هذا المعنى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة].

والسرية تحسن فى حالة التطوع، وإيثار ذوى القربى والجيران سترًا عليهم، والإعلان يكون فى الواجب، وهنا يرد سؤال، إن الزكاة لم تجب إلا فى المدينة،

والسورة مكية، كما هو معلوم، فكيف يجب الإنفاق؟ ونقول: إن وجوب الإعطاء هو من قبيل معاونة المؤمنين من الضعفاء والأرقاء على الصبر على الأذى يؤذيهم به المشركون لإخراجهم من دينهم، وإنه دعى إلى الزكاة فى سورة مكية، منها قوله تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم].

وقبل أن نـنتقل هذه الآية الكريمـة إلى ما بعـدها نذكر كـلاما قـيمـا ذكره الزمخـشرى فى حكمة اقتـران قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾، قال أثابه الله تعالى: «فإن قلت كـيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال؟ قلت: من قِبَل أن الناس يخرجـون أموالهم فى عقود المعاوضات، فيعطون بدلا ليـأخذوا مثله وفى المكارمات ومهـاداة الأصدقاء ليستـجروا بهداياهم أمثالها أو خـيرا منها، وأما الإنفاق لوجه الله خـالصا كقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠)﴾ [الليل]، فلا يفـعله إلا المؤمنون الخلّص فينفـقوا منه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فـيه ولا خلال، أى لا انتفـاع فيه بمبايعة ولا مـخالة، ولا بما ينفقون فـيه أموالهم من المعاوضـات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى»(١).

وإن هذه إشارة بيانيـة قويمة تشير إلى أن الإنفاق سـرا وعلانية المطلوب هو لوجـه الله تعالى، لا للكسب بمعـاوضة ولا للكسب بإرضـاء صديق أو رجـاء فى شدة.

وفى قوله تـعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ...﴾ إشارة إلى أن الإنفـاق لوجه الله تعالى هو ذكـر لله تعالى، فليس من التجـارة التى قال الله تعالى فيـها: ﴿... لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ... (٩)﴾ [المنافقون]، ولا التجارة التى ذم بها المنافقون فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة].

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٧٨.

وقد ذكر سبحانه بعض نعمه فقال:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) ﴾.

ذكر سبحانه وتعالى أن المشركين بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا لله أندادا من حجارة وجعلوها آلهة، وفى هذه الآية يذكر بعض نعمه على الوجود كله فقال تعالت كلماته: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ صدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة مفيض النعم، لتربية المهابة، ولمقابلة عبادته، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، بعبادة الأوهام والضلال، و﴿ اللَّهُ ﴾ لفظ الجلالة: مبتدأ، والموصول هو خبره، فهو تعريف لله تعالى بأنه الذى خلق السموات والأرض، خلق سبحانه وتعالى السماء ببروجها ونجومها وكواكبها، والأرض بطبقاتها وجبالها وما أودع ببطنها من أحجار وفلزات ومعادن جامدة وسائلة، اقرأ قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾ [ق].

هذا هو الإله القادر القاهر الغالب، وهو الجدير بأن يعبد لما أنشأ وأبدع وأنعم. ثم ذكر نعمته فى تلاقى السماء بالأرض يجمع بينهما الذى يسقى الأنفس والثمرات؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أفرد السماء هنا وجمع السموات فى الخلق؛ لأن الماء ينزل من المزن السحاب الثقال المملوءة ماء وسميت سحابا؛ لأنها فوق الأرض التى تمطرها، أما السموات فتحيط بالأرض كأنها الشيء الصغير فى داخل قبة، وإن هذا الماء هو الذى تخرج منه الثمرات؛ ولذا قال: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾، والثمرات جمع ثمرة وهو ما تنتجه الأرض من زروع وغراس وكروم، ونخيل، ومن الثمرات تكون المطاعم

والملابس والمساكن اليدوية والأخشاب وغير ذلك ﴿رِزْقًا﴾ بمعنى مرزوق كمطحن بمعنى مطحون، أى أنه يرزقكم إياه ويجيء إليكم سهلا بغير مشقة إلا العمل الذى يكون سببا مقترنا بالعطاء وليس منشئا له، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين.

و﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بيانية لتنوعها، والمعنى فأخرج من الثمرات المتنوعة المختلفة الفوائد التى ترجع بأحسن الفوائد.

وإن هذه الثمرات تنقل من أرض إلى أرض، وإنه ثبت الآن أن خير السبل البحار وما كان ذلك معروفا عند العرب، بل النقل عند العرب كان بالجمال التى كانت تسمى أو سميت سفن الصحراء، ولكن القرآن أُنزل من حميد يعلم ما كان وما يكون، فهو يعلم أنه سيكون زمن يكون النقل بالبحار فى جُلِّه، وفى الأرض فى قله؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ ومعنى سخرها مكَّن الإنسان من صناعتها واستخدامها وجعلها تعلو فى البحر سائرة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، حاملة خيرات وفيرة من أرض إلى أرض أخرى، هذه الخيرات كثيرة، وبذلك تكون الخيرات موزعة فى الأرض بالقسطاس لولا ظلم الإنسان.

﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ وهى المجارى العذبة كنهر النيل ودجلة والفرات وسيحون وجيحون، ومعنى سخرها سهلها وتكون فى البلاد التى تقل أمطارها، ولا يكفى ما تنزل السماء من ماء لسقيها وزرعها، وسمى النهر نهرا لأنه ينهرها ويشقها ويجرى فيها، والأنهار الكبار تمخر فيها السفن كالبحار، والله هو الرزاق.

بعد أن ذكر سبحانه ما سخر فى الأرض من اقترانها بالسماء أخذ يبين للإنسان من أجرام السماء فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾.

الدءوب معناه السير والمرور فى استمرار ودأب من غير لغوب، وتلك سنة الله تعالى فى أجرام السماء، فهى تسير فى دأب يعلم الله تعالى سيرها، وناموسها

وسننها من غير إبطاء، والشمس والقمر يسيران ويتحركان فى دأب مستمر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس].

وهى مسخرة يستفيد الإنسان من حركاتها، فالشمس ذات الضياء والأشعة التى تمد الزرع والشجر والثمار بالنمو، والإنسان بالدفء والحرارة والأشعة، وكل ما فيه حياة الإنسان، والقمر يمده بما تنتظم به الحياة فى الإنسان والحيوان، وحسبك أن تعلم أن طَمْث المرأة وحملها وجهارها مرتبط بمنازل القمر، وأن تعلم أن المد والجزر مرتبطان أيضا بالقمر، وإن ارتباط الشمس بالأرض كان منهما الليل والنهار، فالأرض فى دورانها يحجب عنها ضوء الشمس فيكون الليل وينبسط عليها ضوء الشمس فيكون النهار، وفى الليل الهدأة والسكون والثبات والراحة، والاستجمام، وفى النهار تكون الحركة والسعى للرزق كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ].

وقد أنعم الله على عباده بتلك النعم كلها، وظهرت بها قدرته القاهرة، وإبداعه، وإنعامه وهو المستجيب فى السراء والضراء، والمنقذ فى المدلهمات، وما يكرث العباد؛ ولذا ختم الكلام فى نعمه بقوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

(الواو) عاطفة على ﴿خَلَقَ﴾ فى قوله تعالى: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فكلها نعم مترادفة متوالية جامعة، بعضها مع بعض أو تالى لبعض، ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، فيها قراءتان إحداهما من غير تنوين فى (كل)، بل كل مضافة إلى ما بعدها: وقرئ بالتنوين، ولها إضافة و(ما) فى ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ اسم موصول بمعنى (الذى) أو نافية.

ومن فى قوله: ﴿مِّن كُلِّ﴾ إما تبعيضية، وإما مؤكدة لاستغراق الحكم زائدة فى الإعراب، والمعنى على أنها تبعيضية على قراءة الإضافة، وآتاكم بعض ما

سألتمــوه، أما ما احتجـتم إليه، وكانت حاكم حال مــن يسأله إياه، وإن لم يسأل باللسان بل سأله بالاستعداد والتكوين، فأعطاكم الكساء والغطاء واللباس والوقاية، ومكنكم من أن تتـسلحـوا ضد من يغـير علـيكم من سبـاع الأرض حيـوانات أو أناسى، وغير ذلك، والبـعضية بعضـية أنواع أى بإعطاء بعض كل نوع من الأنواع تسألونه بمقتضى الفطرة والتكوين والحاجة الفطرية، وعلى أن ﴿مِّن﴾ بيانية، يكون المعنى أعطاكم كل ما سألتـموه بمقتضى الاستـعداد والفطرة على ما بيَّنا، وإن ذلك واضح جمع فيه بين الكلية فى كل ـ ومعنى العطاء.

وعلى قراءة التنوين: يكون ثمـة مضاف محـذوف دل عليه التنوين، والمعنى آتاكم من (كل) شىء سـألتـموه، أى بمقـتـضى أصل التكوين، وتكون القـراءتان متلاقيتين على تخريج ﴿مِّن﴾ بأنها بيانية.

ولا أرى موجبا أو داعيا لأن نقول: إنها نافية، والله أعلم.

وإن هذه وما سـبقها من نعم هى نعـم الإنشاء والإبقاء، فقـد أنعم بالإنشاء وأنعم سبحانـه وتعالى بالإبقاء مستمكنا من كل شىء حـتى يكون اليوم الآخر يوم الجزاء لمن شكر بالنعيم المقيم، ولمن كفر بالعذاب الأليم.

وقد أشار سبحانه إلى أن الإنسان يكفر النـعمة ظلما، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سبأ]

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ظلوم صيغة مـبالغة من الظلم، أى أنه ظالم أبلغ الظلم بظلم نفسه بالكفر وغمط حق غيره، والاعتداء على الناس وعلى الحقائق، والاعتداء بعبادة الأوثان، و﴿كَفَّارٌ﴾ صيغة مبالغة فى الكفر، وهو كفر النعمة وعدم شكرها، بل اتخاذها سبيلا لعتوه واستكباره وفساده فى الأرض، وقد أكـد الله تعالى ظلم الإنسان بـ«إن»، وبـ«اللام» وبصـيغة المبـالغة فى الظلم، وكفر النعمة، والله محيط بالكافرين.

دعاء أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾

هذا دعاء أبى العرب ومن يتشرفون بالانتساب إليه وهو بانى البيت، وأول دعائه ما يتعلق بالبيت العتيق الذى كان أول بيت وضع للناس.

أول دعائه اتجه إلى الأرض فى البيت، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ والبلد هو مكة المكرمة، زادها الله تعالى تشريفا، وقوله تعالى: ﴿آمِنًا﴾ أى ذا أمن؛ لأن الأمن للسكان لا للمكان، ومعنى الأمن لا اعتداء فيه، ووصف المكان بالأمن، فيه بيان سيادة الأمن، فالمكان لا اعتداء فيه، وهو مقدس، وقد أجاب الله تعالى دعاءه وكان فضلا من الله على العرب، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)﴾ [العنكبوت].

والجزء الثانى من الدعاء أنه دعا ربه مبتهلا إليه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام فقال تعالى حاكيا دعاءه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ دعا عليه السلام لنفسه ولبنيه أن يجنبهم عبادة الأصنام، فقوله تعالى: ﴿أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ فيه ﴿أَن﴾ وما بعدها، مصدر وهو عبادة الأصنام، وذكر الفعل المضارع لتصوير عبادة الأصنام، وفى ذلك إشارة إلى قبحها وبعدها عن المعقول.

وقول إبراهيم: ﴿وَبَنِيَّ﴾ واضح أنه لا يشمل الذرية كلها لدلالة اللفظ على ذلك؛ ولأن الإجابة لم تكن للذرية كلها، فقد كان من هذه الذرية من عبد الأصنام، بدليل هؤلاء الذين نظر فيهم القرآن، وخاطبهم محمد ﷺ يدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئًا، فالله تعالى لم يكن فى إجابته سبحانه وتعالى ما يعم الذرية كلها.

ولقد كان إبراهيم عليه السلام الذى كان أبوه صانع أصنام، والذى ابتدأ حياته بحَطْم الأصنام، والذى قال: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ ... ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء]. كان إبراهيم أشد الناس بغضا للأصنام وإدراكًا لضلال من يعبدونها؛ ولذا قال مؤكدا: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى الأحجار، مع أن الإضلال هو من الشيطان الذى ابتدع الأوهام حولها؛ وذلك لأنهم لما عبدوها وأحاطوها بأوهام كثيرة وصار الوهم يولد وهما وتوالت وتكاثرت، وكلها حولها صح إسناد الإضلال إليها، وعبر إبراهيم عليه السلام عن الذين ضلوا بها بأنهم كثير، وليسوا عددا قليلا، وذلك لعموم الضلال بها، وعمومه لا يجعلها حقا، بل هى باطل، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام].

وإن ذكر ضلال الأوثان على لسان إبراهيم عليه السلام، وهم يتشرفون بنسبتهم إليه وهو بانى الحرم الشريف المقدس، فيه بيان أنه برىء منهم ما داموا يعبدون الأوثان؛ ولذا قال عليه السلام فى دعائه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ملة إبراهيم هى التوحيد،

كما قال تعالى: ﴿ ... مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل]، فمن تبعه فى ملته فإنه منه، ومفهوم هذا أن من لم يتبعه فى التوحيد، وعبد الأوثان فليس منه؛ لأن اشتراط كونه موحدا ليكون منه، فيه بيان لئن لم يتبعه لا يكون منه، بل هو بريء منه، كما تبرأ من أبيه، وكما تبرأ من قومه إذ قال: ﴿ ... إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾ [الأنعام]، ثم قال عليه السلام فى دعائه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وصف الله تعالى خليله بقوله: ﴿ ... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ [التوبة]، وإن حلمه وعطفه وشفقته لتبدو فى قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو عليه السلام لم يحكم بالعذاب على من عصاه، بل ترك أمره لله تعالى، كما قال عيسى عليه السلام مثل ذلك فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]، وليس معنى النص أنه يطلب الغفران لمن أشرك بالله، فمحال أن يطلب عدو الأصنام الأول غفرانا لعبدة الأوثان، إنما الذى يفهم من مضمون العبارة السامية أنه يرجو الرحمة لمن عصاه ابتداء ألا يستمر على عصيانه فهو يرجو التوبة ولا يقدر البقاء على الشرك حتى يكون العذاب الأليم.

وهنا إشارة بيانية حكيمة، فيقول خليل الله عليه السلام فى دعوته: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ تعبر عن ترك عبادة الأوثان ﴿وَاجْنُبْنِي﴾، أى اجعلنى فى جانب وبنى فى جانب فهى تتضمن المباعدة، وكان حقا على ذرية إبراهيم التى عبدت الأوثان أن تباعد بينها وبينها.

بعد أن دعا أبو العرب الشفيق لهم بتطهير نفوسهم، وأن يكونوا لله تعالى، دعا لهم بالرزق فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾.

كان دعاء إبراهيم عليه السلام بضمير المتكلم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وذلك فى العبادة، أما فى طلب الرزق فقد طلبه بضمير الجمع فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ

﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾؛ لأن الرزق يطلبه المخلص ليعم لا ليخص فهو يطلبه باسمه وباسم ذريته، ويعم مؤمنهم وكافرهم، كما قال تعالى منبها إبراهيم إلى أن يطلب لمن آمن ومن كفر، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة].

يقول إبراهيم فى دعائه مقررا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنه أسكن من ذريته بواد غير ذى زرع، و﴿مِن﴾ هنا للتبعيض وهى ذريته من إسماعيل، أما ذريته من إسحاق فلم تكن بواد غير ذى زرع، أى أنه لا زرع فيه، ينبت ما يكون غذاء للإنسان والحيوان كالحنطة والشعير ونحوهما مما يكون غذاء للإنسان.

الأمر الثانى: كان إسكان هؤلاء لغرض تعمير بيتك العتيق الذى بناه بأمر الله أبو الأنبياء؛ ولذلك قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، أضاف البيت إليه سبحانه وتعالى تشريفا لشأنه، ووصفه بالمحرم؛ لأنه تحرم فيه الدماء، وهو فى ذاته حرم آمن يأمن كل من يأوى إليه.

وقد بنى فى صحراء جرداء ليكون آمنًا من طمع الطامعين ورغبة المعتدين، إذ إنهم يرومون خصب الأرض ليشبعوا نهمتهم ويرضوا مطامعهم، وليكون الاستغلال الغاشم والاستعمار الظالم، فكان فى أرض لا يطمع فيها طامع، ولا يرومها فاتح.

وقد كرر نداء ربه ضراعة، فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ متعلق بأسكنت، اللام للتعليل، أى أن أسكنتهم لأجل إقامة الصلاة فيه وأن يعمروه بصلاتهم، لا ليستمر خرابا من العبادة، خاويا من الناس، فلا تنتهى إلى الغاية التى أمرت بإنشائه من أجله، وفى هذا إشارة إلى أن المشركين من ذرية إبراهيم قد انحرفوا به عن غايته عندما أحاطوه بالأوثان التى هدمها

النبى ﷺ يوم فتح مكة فى العام الثامن من الهجرة على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم.

الأمر الثالث: بعد أن ذكر إبراهيم حالهم وحال أرضهم ذكر دعاء طالبا من ربه ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (الفاء) تدل على أن الباعث لهذا الدعاء ما قبلها، وهو ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾.

فى قوله تعالى: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ مؤداها أن يفد بعض من الناس إلى هذه الأرض التى لا زرع فيها مسرعين تميل قلوبهم وتهوى نفوسهم محبين الرحلة إليها مع رمالها، وجبالها وأنها لا خير فيها، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ معناها بعض الناس، وروى ابن عباس أنه قال: لو قال تعالى: أفئدة الناس لازدحم بالفرس والترك من غير المسلمين، وقوله تعالى: ﴿تَهْوِي﴾ من هوت الناقة إذا أسرعت فى سيرها إسراعا شديدا كأنها تسابق الريح، وقوله تعالى: ﴿أَفْئِدَةً﴾ خرجها بعض العلماء على أن أصلها (أوفدة) جمع وفدة، حصل فيه قلب مكانى فحلت الفاء محل الواو، وحلت الواو محلها فقلبت همزة، وإنه لا داعى لهذا التخريج النحوى ولا دليل عليه، وإن الأولى أن تكون كلمة أفئدة على معناها الأصلى وهى أنها جمع فؤاد بمعنى القلب، والدعاء يكون منصبا على أن تميل القلوب إلى المكان مع جفاف مائه وصعوبة أرضه وارتفاع جباله الصماء التى لا تُكسى بخضرة قط، والمعنى على ذلك يكون مستقيما وقويا ككل معانى الذكر الحكيم.

وذكر الزمخشرى أن هناك قراءة أخرى وهى (آفدة) اسم فاعلة من أفدت بمعنى أسرعت جماعة أو جماعات متتالية جماعة بعد جماعة، حتى لا ينقطع عنهم خير الأرض كلها؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾، و﴿مِّنَ﴾ هنا يصح أن تكون بيانية، أى ارزقهم الثمرات التى حرمتهم أرضهم منها، ويصح أن تكون بمعنى بعض، ارزقهم بعض الثمرات من كل صنف.

ثم قال تـعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن يشكروا هذه النعم، أى تكون حالهم حـال شكر، لا حال كفر فـلا يعبدوا إلا الله تعـالى العزيز الحكيم. والرجاء من العـباد لا من الله، أى ليكونوا فى حال رجـاء الشكر دائمة بدوام هذه الخيرات التى يسوقها الله سبحانه وتعالى إليهم وتجىء إليهم فى واد (قفر) ليس فيه زرع ولا ثمر، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام فجعله حرمـا آمنا تجىء إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه وفضله، بهـذا الخير يتوافر أصناف الثمـار ما لا يوجد كله فى أخصب الأرض وريف الأمصار، وفى بلد من بلاد الشـرق والغرب، إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، ثم يقول: وليس ذلك من أيامـه بعجيب متعنا الله بـسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا الشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب». تلك كلمات جار الله فى مكة المكرمة ـ الزمخشرى[1].

وقد أحسَّ إبراهيم خليل الله بـالخشوع أمام ربه والضـراعة إليه بعـد أن دعا لولده وذريته بما دعا، وأدرك أن دعاءه فـيه معنى التطاول مع علم ربه، وهو العليم بكل شىء فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾.

نادى ربه بضمـير الجمع، فـقال: ﴿رَبَّنَا﴾، أى أنه ربه ورب ذريته، ورب الوجود كله. وأنه أعلم بحالهم، سرهـم وعلانيـتهم، وأن العلم على سواء يستوى فيه المغيب والمعلن ومـا غاب وما حضر، وكأنه يستدرك على دعـائه؛ لأنه سبحانه هو الذى أسكنهم فى ذلك الوادى الجـدب، وهو الذى أقامهم بـجوار بيتـه المحرم الذى يحرم فـيه مـا يباح فى غيـره من صيد وقـتال لو كـان عادلا، إلا أن يكون دفاعا.

يعلم كل ذلك، بل إنه ما كان له أن يتطاول على مقام الألوهية بهذا الدعاء، وقثد ابتدأ الدعاء بذكر حالهم من العلم بسـرهم وجهرهم، ثم عمم علمه سبحانه

---

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٨٠.

فقال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾، و﴿مِن﴾ هنا لعموم النفى، أى ما يخفى على الله شىء فى الأرض من خيرها وجدبها وزرعها، وقحطها، وطبقاتها، وما فيها من معادن سائلة وجامدة، والسماء وما فيها من نجوم وكواكب، وسحب ثقال تأتى بالدر الوفير والخير الكثير.

ولقد قال الزمخشرى فى هذه الآية كلاما قيما ننقله عنه فيما يلى:

«والمعنى أنك أعلم بأحوالنا، وما يصلحنا وما يفسدنا منَّا، وأنت أرحم منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك، وتذللا لعزتك، وافتقارا إلى ما عندك، واستعجالا لنيل أياديك وقربا إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدى سيده رغبه فى إصابة معروفه، مع توفر السيد على حُسْن الملكة»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ ذكرت الأرض أولاً؛ لأن الكلام فى جدبها وخصبها، وذكرت السماء؛ لأنها تمدها بالسقى والماء.

وظاهر القول أن ذلك من ضراعة إبراهيم عليه السلام، وهو ما نراه، وقيل: إن ذلك من قول الله، والحق أن كله من قوله تعالى ما جاء على لسان إبراهيم وغيره.

شكر النعمة

قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

---

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٨١.

رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

يقول تعالى: ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ فاستدامة النعمة بالشكر؛ لذلك بادر إبراهيم بشكر النعمة التى أنعم الله بها عليه. إن الله تعالى وهب له وهو كبير طاعن ولديه إبراهيم وإسحق، وكانت أمرا خارقا للعادة، وعندما بُشِّرت بذلك امرأة إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ... ﴿٧٢﴾﴾ [هود]، فأعلن بالحمد إبراهيم الذى كان مثلا للإنسان الفطرى الكامل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾.

ابتدأ كلامه بالحمد إشعارا بشكر النعمة وتقديرها، إذا أعطاه ولدا حيث يستحيل ذلك عادة وعلى مجرى الأسباب المعروفة؛ إذ أم إسحق عجوز وزوجها شيخ هرم، حتى قيل: إن سنه عند البشارة بإسحق كانت فوق المائة، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فيه معنى القصر، أى أن الحمد لله تعالى وحده، فهو مانح النعم ومجريها وحده، وهو الذى وهبه فى هذا الكبر العتىِّ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾، ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى مثلها فى قول الشاعر:

إنى على ما ترين كِبرَى　　　أعلم من حيث تؤكل الكتف

وقوله: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ تدل على جلال الشعور بالنعمة، إن ذلك واضح أنه إكرام من الله تعالى بخرق الأسباب، وإن شكر النعمة بذكر إسماعيل وإسحق فيه معنى جليل؛ لأنهما ولدا أبى الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام، فكأن النبوة انحصرت فى ذريته عليه السلام، كما يبدو من قصص القرآن الكريم الصادق فى ذاته.

وقد جاءت العبارة الضارعة التى تؤكد شكره للنعمة، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، والدعاء هنا هو الضراعة إلى الله تعالى، وطلبه منه الولد، فقد طلبه، ودعا ربه به، فقد جاء فى سورة الصافات أنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات]، فهذه بشراه بإسماعيل عليه السلام، وكانت استجابة لدعائه، وكانت بعد ذلك فى نفس السورة بشراه بإسحق فقال سبحانه: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

والبشارتان مختلفتان: فإسماعيل أكبر من إسحق، فالذبيح إسماعيل لا إسحق كما جاء فى التوراة المحرفة.

ومهما يكن الأمر فى هذا فقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فيه ما يدل على أن ذلك كان بدعاء من الخليل واستجابة من الله تعالى، فقد أكد أن الله سميع الدعاء أولا: بالجملة الاسمية، وثانيا بـ (إنّ) المؤكدة، وثالثا باللام فى قوله: ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وعبر بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ فيه أيضا شعور بالشكر الجزيل لربه؛ لأنه الذى ربَّه وكونه وقام على شئونه واستجاب دعاءه.

لقد كان إبراهيم عليه السلام صورة سامية للفطرة الإنسانية، وأوضح هذه الفطرة حب الذرية والحدب عليها وإكرامها وتوجيهها إلى الحق وإلى عبادة الله تعالى؛ ولذا قال الله تعالى على لسانه:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾.

النداء إلى الله سبحانه وتعالى بوصف أنه ربُّه الذى كونه وأنشأه، وربَّه وقام على شئونه يدعوه إلى أن تكون نفسه للعبادة، يفديه بروحه وبالإيمان، وإقامة

الصلاة، كما غذاه فى بدنه وعموم أحواله، وحاجاته البدنية، فيطلب غذاءه الروحى بعد غذائه الجسدى.

ويقول عليه السلام مخاطبا ربه: ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾، أى صبرنى وحولنى ووجهنى إلى أن أكون مقيم الصلاة، أى مؤديا لها أداء مقوما مستقيما كاملا، بأن تكون أركانها الحسية مستوفاة، ومنها الخشوع والخضوع المطلق، والصلاة رمز إلى القيام بحق الدين كاملا من غير التواء، ولم يكتف بالدعاء لنفسه بل أضاف إلى ذلك الدعاء لذريته، ولكن الله تعالى أشار إلى أنه سيكون من ذريته من لا يشكر الله تعالى، ومن يعصيه؛ ولذا قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، و﴿مِن﴾ هنا للتبعيض، أى اجعل من ذريتى مقيم الصلاة ليكون حبل العبادة متصلا إلى يوم القيامة لا ينقطع التوحيد، وإقامة شعائره، بل تتصل إلى يوم القيامة، ومن ذريته قائمون على الحق يهتدون بهديه، ويسيرون فى طريق الحق، وهو الطريق المستقيم.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (الواو) عاطفة على ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾، وجاء قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ كالجملة تكون بين متلازمين، وهما هنا المعطوف والمعطوف عليه، وذكر ﴿الدعاء﴾ للضراعة والابتهال إلى الله تعالى، وذكر بضمير المتكلم ﴿رَبِّ﴾، والجمع ﴿رَبَّنَا﴾ للإشارة إلى أنه يتكلم عن نفسه، وعن الصالحين من ذريته، والدعاء هنا هو العبادة، إذ هى دعاء لله تعالى وضراعة إليه، ومن يدعون الأنداد إنما يعبدونها، وهى لا تضر ولا تنفع، فهم بدعوتهم من دون الله سبحانه وتعالى يعبدون ما لا يضر ولا ينفع، ولقد ورد أن النبى ﷺ قال: «**الدعاء مخ العبادة**»[1] فالدعاء من العبادة، وهو ذاته عبادة.

وقال: ﴿تَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ والتقبل شدة القبول، وتقبل العبادة من الله تعالى قبولها مع الرضوان، ومحبة القائم بها.

---

(١) سبق تخريجه.

وإن ذلك يتقاضى أن يكون ذلك من العابد بقلب سليم مخلص طاهر، لا يقصد بها غير وجه الله الكريم، لا يرائى به، ولا ينقض بعضها ببعض، بل يتجه بكل نفسه لربه لا يكون فيها موطن لغيره سبحانه.

وإن إبراهيم عليه السلام يمثل فى شخصه النبوى، الرجل الفطرى المستقيم النفس فى كل اتجاهاتها، وقد رأينا من فطرته أنه فكر فى ذريته كما فكر فى نفسه، والفطرة السليمة تجعله يذكر عند الخير أبويه كما ذكر ذريته؛ ولذا عندما اتجه إلى ربه طالبا مغفرته ذكر أبويه فقال تعالى على لسانه:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾.

كان إبراهيم عليه السلام متجها دائما إلى مقام الربوبية فنادى ربه بالربوبية، وقد ذكرناها فى ذلك من ضراعة المؤمن المقدر لنعمة الإيجاد، والربوبية، والقيام على شئونه، وأنه الحى القيوم القائم على ما أنشأ من خلق، وهو اللطيف الخبير، ودعاه بالمغفرة، وابتدأ بنفسه أولا، ثم ثنى بوالديه، وثلث بالمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، سواء أكانوا من ذريته أم كانوا من غيرهم، فهو دعاء لعامة المؤمنين، وإبراهيم عليه السلام كانت أدعيته العامة جماعية؛ لأنه نادى بالأخوة الإنسانية.

وطلب الغفران وستر الذنوب، ومحو السيئات، وقيام الحسنات، يوم يقوم الحساب، وهو يوم القيامة حيث يكون الحساب بأن يقوم كل إنسان ما قدم من خير، وقد كتب ما ارتكب من خير وشر، فهو يطلب من الله فى هذا اليوم عفوه وتغليب مغفرته على عذابه، وذلك بالنسبة للمؤمنين، وبالنسبة لوالديه.

وهنا يسأل سائل كيف يستغفر إبراهيم لأبويه، وأبوه بلا ريب كان مشركا يعبد الأوثان؟ ويقال: إنه كان يصنعها؟ ونقول فى هذا: إن إبراهيم كان رجل الفطرة المستقيمة، ففطرته الإنسانية المستقيمة دفعته لأن يكبر عليه أن يهتدى وأبوه مشرك، وأن يعبد الله وأبوه يعبد الشيطان، وأن يكون فى الجنة وأبوه فى النار، وقد بدا ذلك فى مجاوبته، إذ قال لأبيه: ﴿ ... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ

وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم]، طرده أبوه من حضرته مع ما فى عبارته من رفق، وما تشف عنه من محبة، ولكنه يستمر فى رفقه بمقتضى حكم الفطرة، فيقول: ﴿ ... سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]، كانت هذه أول موعدة وعدها إياه، فاستغفر له ولم تكن بينهما بغضاء الضلال التى اتسم بها أبوه؛ ولذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ... ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة].

إذن كان الخليل عليه السلام يستغفر لأبيه ويطلب له المغفرة ومرتبط معه بمودة لم تفرقها عداوة، وهذه السورة التى نتكلم فى معانيها سورة مكية، وسورة الممتحنة التى فيها ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مدنية، وهذا يدل على أن النهى لم يكن حتى سورة الممتحنة، وجاء النهى بعد ذلك كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة].

وقد قلنا: إن إبراهيم عليه السلام تتمثل فيه الفطرة القويمة.

الكافرون بالنعم ظالمون

قال الله تعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ

هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى مثلا كاملا لشكر النعمة، واختار لذلك خليله إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أبو العرب الذين يعتزون بنسبه، وهو الذى أجرى الله على يديه بناء البيت مكان عزهم، وذكره دعوة إلى اتباع ملته، والإسلام ملة إبراهيم الذى سمى المسلمين مسلمين.

بعد ذلك ذكر سبحانه من يكفرون النعمة ويظلمون أنفسهم بكفرهم، فقال عز من قائل: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾.

الحسبان هو الظن أو العلم المبنى على الظن، والنبى ﷺ منزه عن أن يظن الغفلة أو السهو على الله تعالى، فالله يعلم ما كان وما يكون، وما هو كائن؛ ولأنه تعالى وعده بالنصر، والعقاب الشديد على ما يفعله، وأنه محص عليهم أعمالهم كل امرئ بما كسب فكيف ينهى عن الظن بأن الله غافل، وما كان احتمال لأن يرد ذلك على قلب النبى ﷺ حتى ينهى عنه، والجواب فى ذلك أن هذا الكلام لتأكيد أن الله تعالى يحصى على المشركين أعمالهم، كما يقول تعالى: ﴿... وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص]، وكقوله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ

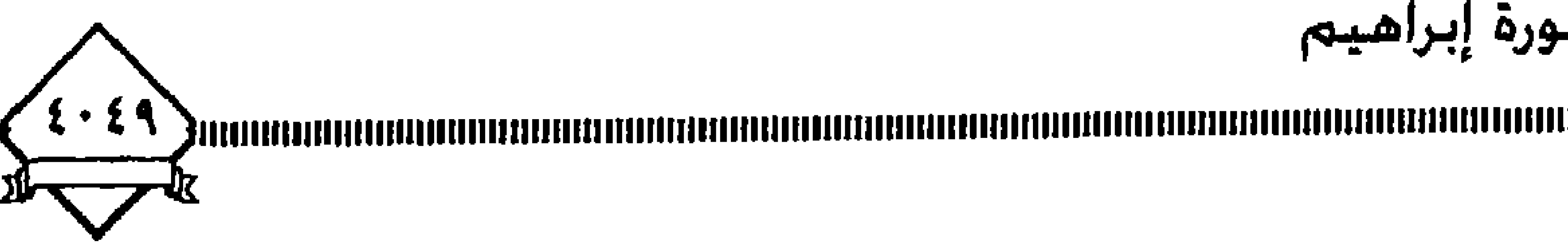
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... ﴿٨٨﴾﴾ [القصص]، فهو نهى للتثبت، وتأكيد أنه لم يقع من النبى ﷺ، وفوق ذلك أن النهى إعلام للنبى ﷺ بأنه عالم بحالهم مُحصٍ عليهم سيئاتهم، وهو تهديد شديد لهم، كما يقول المجادل لمجادله: لا تجهل أنى عالم بكل أخطائك، فهو إعلام، وهو تهديد للمشركين.

وعبر بقوله تعالى: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ فأظهر فى موضع الأضمار لتسجيل الظلم عليهم؛ ولأن العقاب سبب الظلم، فهم أشركوا، والشرك ظلم عظيم، وآذوا المؤمنين والمؤمنات، وذلك اعتداء ظالم آثيم، وصدوا عن سبيل الله، فلم يتركوا الناس أحرارا يعتقدون ما يرونه حقا.

وإذا كان الله تعالى عالما بظلمهم مجاريهم على ما يفعلون من آثام، فهو لا يهملهم، ولكن يمهلهم، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم]، وفى هذا النص السامى يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ هنا أداة حصر، أى كان التأخير لأجل هذا اليوم الذى يكون شديدا، وفيه النفوس جميعا تكون فى هلع وفزع، فليس التأخير لنسيان، أو غفو أو ترك، إنما التأخير هو ليوم كله عذاب الأجساد والأنفس، وإذا كانوا يمشون فى الأرض مرحا، ويستهزءون ويرتعون ويلعبون ويسخرون من المؤمنين فسيكون عليهم يوم عسير شديد، وقد وصف الله تعالى حالهم فى ذلك اليوم فذكر لهم خمس أحوال كل حال فيها تنبئ عن فزع بذاته.

الحال الأولى: ما ذكرها سبحانه بقوله: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾، أى العين تشخص لا تغمض من هول ما ترى، فإن إغماض العين يكون من الدعة والاطمئنان، أما يوم القيامة يوم الفزع الأكبر، فإنه لا يكون اطمئنانا ولا يكون



دعة، وتكون العين مفتوحة متسعة الأحداق من الأهوال التى تراها، حتى كأنها مع فتحها وعدم إغماضها لا تشعر بشىء إلا الهول وأسباب الفزع.

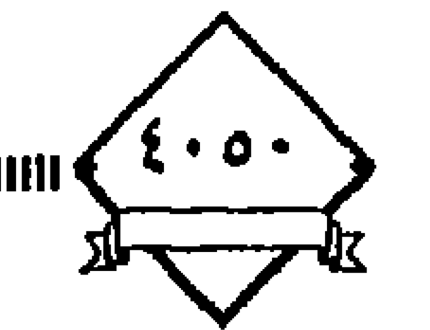
والحال الثانية: هى ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾، ومعناها مسرعين فإنهم كانوا فى الدنيا يسيرون متئدين مـالكى أنفسهم مسيطرين على قواهم، وكما قال فى آية أخرى فى وصف حالهم يوم القيامة: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧﴾ [القمر]، والإهطاع إسراع فى ذل وتكسر وخوف وهلع، فبعد أن كانوا يسيرون فى الأرض مرحا كـأنهم يخرقون الأرض أو يبلغون السماء طولا يسيرون مـسرعين أذلاء خالفين لأول داع، خائفـين من أن يكون وراء الدعوة أمر أشد هولا.

والحال الثالثة: عبر عنها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ من أقنع رأسه، وتستعمـل بمعنى رفعها متطلعا إلى من فوقهـا من شدة الهلع، وقد قال فى معناها الأصفهانى فى مفـرداته: أقنع رأسه رفعها قال: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، وقال بعضهم: أصل هذه الكلمة مـن القناع، وهو ما يغطى به الرأس، فقَنِع لبس القناع ساترا لفـقره، كقـولهم حفى أى لبس الحـفاء، وقَنَّع إذا رفع قناعـه كاشفـا رأسه بالسؤال كخفى إذا رفع الخفاء.

وخلاصة هذه المعـانى أنهم يكشفون ذلهم وحاجتهم رافـعين رءوسهم بالذل والهـوان، لا يستتـر من أمرهـم شىء، فلا يبـدون ما يخـفون، ويظهـرون ما لا يسرون.

وذكر الزمخشرى أن بعض علـماء اللغة يفسر ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ يخفضها ذلا وانكسارا، ورءوسهم ارتفـعت، أو انخفاضها، فـهو ذل ظاهر واضح، وصار كالسائل الذى كشف قناعه للمسألة.

والحال الرابعة من أحوالهم: أن أبصارهم زائغة لا تتحرك أطرافها من هول ما هم فيه وهذه عبـر الله عنها بقوله تعالى: ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، والمعنى أن أنظارهم قد استغرقـتها الأهوال التى تراها فهى فزعة هلعة قد سمـرت أعينهم فيما



ترى من عذاب هو عذاب الهول الأكبر، فلا ترجع إليهم، أى لا تعود إلى سيطرتهم فترى ما يجب أن تراه وتمتنع عن رؤية ما لا يجب أن تراه، فهى قد ملكتها تلك المرئية المفزعة ولم يعد له عليها من سلطان.

والحال الخامسة: أن أفئدتهم فرغت من أسباب الاطمئنان، وامتلأت بأسباب الهموم والخوف، وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾، أى لا تدرك شيئا ولا تعيه من شدة الخوف والهلع، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ... ⑩﴾ [القصص]، أى أنه فرغ من الوعى والإدراك ولم يبق إلا موسى والخوف عليه، والهواء فى اللغة المجوف الخالى، والمعنى أصبح فؤادهم مجوفا خاليا من العلم والإدراك لشدة ما رأى وما وقع، ومن هذا المعنى قول حسان شاعر الإسلام من أبى سفيان قائد الشرك آن ذاك:

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوَّف نخِبٌ هواء

وهذه الأحوال تصوير لحالهم يوم القيامة من فزع وذل وانكسار، وامتلاء قلوبهم بالخوف والرهبة، وإنها من آيات الإعجاز، وكل القرآن إعجاز يبهر المدركين.

ولقد أمر الله تعالى نبيه أن ينذر الناس بهذا اليوم الذى ذكر فزع الناس فيه فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾.

الكافر مادى لا يؤمن إلا بما يرى ويحس، فما لم يحسه لا يؤمن به، وليس عنده نفاذ بصيرة يعى به ما لم يدرك وما لم يره؛ ولذا كان من أوصاف أهل الإيمان أنهم يؤمنون بالغيب وهم بالآخرة هم يوقنون، يرون الناس يموتون ويحيون، فيعلمون أن الحياة لغاية وأن الموت ابتداء نهاية.

ولذا كان أول إنذار هو الإنذار بالعذاب الأليم فى يوم القيامة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ الإنذار: التخويف، وهو يتعدى إلى مفعولين الأول ﴿النَّاسَ﴾، والثانى ﴿يَوْمَ﴾.

والإنذار متجه لما يجرى فى هذا اليوم من حال تقشعر من هولها الأبدان، إذ تكون أبصارهم فيها شاخصة، خوف العذاب الأليم الذى هو فى ذاته هول أكبر، ولكن جعل التخويف لليوم من إطلاق اسم المحل وإرادة الحال، وإنه لشديد تضطرب له نفوس أهل النار ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الفاء هنا لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها فما فيه من هول شديد، وما فيه من جحيم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾ [مريم]، يكون سببا لأن يطلبوا الرجعة إلى الدنيا، وقد قالوا: ﴿أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمن قليل، وعبر عنه بالقريب لأنه قريب ما بين طرفيه أوله ومنتهاه، وهذا كقولهم فيما يحكى الله تعالى عنهم: ﴿... رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة]، وكقولهم فيما حكى سبحانه عنهم: ﴿... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ... (٣٧)﴾ [فاطر].

وقوله تعالى: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ وهى دعوة التوحيد، وألا يشركوا بالله شيئًا وما جاء به القرآن وغيره من كتب السماء، ومن شرائع، ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، أى لا نستكبر عليهم ولا نتعالى ونتسامى عليهم، بل لنكون لهم تبعا.

فيقول الملائكة بأمر الله تعالى مبكتا مذكرا لهم كفرهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم﴾، (الواو) عاطفة على ما قبلها، والهمزة للاستفهام الإنكارى الذى فيه إنكار الواقع، والاستفهام داخل على النفى ونفى النفى إثبات على معنى التوبيخ، والمعنى لقد أقسمتم من قبل مغترين على الله تعالى جاهلين لأنفسكم، ولمجرى الحياة ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، أى ليس لكم أى زوال، وإنهم فى الحقيقة كما يظهر من مجرى

أمورهم أنهم كانوا لا ينكرون الموت، ولكن ينكرون الحياة بعد الموت ويقولون: ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... ⁽٥⁾﴾ [الرعد].

ولكن لأنهم عتاة غاشمون لا يرعون إلاً ولا ذمة، وقد اغتروا بالحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور، يعملون كأنهم لا يموتون ولا يفنون، وأنهم فى الدنيا خالدون.

وقد فسر بعض العلماء أن المراد من الزوال المنفى أنهم لا يزولون ثم يبعثون، وهذا تفسير مجاهد تلميذ ابن عباس ترجمان القرآن، كما سماه عبد الله ابن مسعود، ويكون المعنى على هذا التفسير: ما لكم من زوال من هذه الدنيا تنتقلون من بعده إلى الآخرة.

وإنهم فى قسمهم هذا أو فى حال الغرور التى اغتروا بها وحسبوا أنها حياة خالدة، والعبر بين أيديهم قائمة، ولذا قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ⁽٤٥⁾﴾.

سكن، معناه قرَّ فيها، وغنى فيها، وتتعدى بـ(فى)، كما تتعدى بنفسها، فيقال سكنت الدار، والأصل هو التعدية بـ (فى) ثم لما شاع الاستعمال تعدت بنفسها.

والمعنى أن العبر كانت قائمة، وأقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لا يبعثون بعد موتهم، وقد سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والإيذاء للمؤمنين والصد عن سبيل الله، وتبين لكم ما نزل بسبب ظلمهم من إمطارهم حجارة من سجيل منضود، ومن جعل الأرض عاليها سافلها إلى آخر ما هو ثابت عبرة للآخرين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾، أى تبين ما فعله الله بهم، وحالهم العجيبة الجديرة بالنظر، وبينا لكم الأمثال الأشباه، ومع ذلك لم تعتبروا، فاليأس من إيمانكم كان ثابتا، واليأس من إيمانكم بعد رجعتكم إلى الدنيا أشد ثبوتا.

ومع هذه العبر والأمثال استمروا فى غيهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾.

الكلام فى أخبار الذين سكنوا فى مساكنهم، وقد تبين كيف فعل الله بهم، وقد بين فى هذه الآية أنهم كانوا يدبرون التدبيرات الخبيثة للكيد للحق وأهله، والتوحيد ومعتنقيه، أى دبروا كل ما يحاربون به عقيدة التوحيد، فاعتقدوا الباطل وناصروا الشرك، وحاربوا المؤمنين بكل أنواع الحرب من فتنة فى الدين.. وإيذاء للمؤمنين وسخرية بهم ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾، أى وعند الله تعالى علم مكرهم، وأنه محيط بما كانوا يمكرونه ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾.

الجبال هنا المراد بها شرائع الله تعالى التى جاء بها النبيون، فشبهت بالجبال لثباتها وشموخها وعلوها ورفعتها، و﴿ إِن ﴾ هنا إما أن نقول: إنها مخففة من (إنَّ) الثقيلة، والمعنى أن الحال والشأن أن ذلك المكر كان مهيأ ومعدا لتزول به الشريعة، ولكن تدبير الله كان أحكم فنجت الشرائع التى بلغت فى شموخها وعلوها وثباتها مبلغ الجبال.

وإما أن نقول: إنها نافية وتكون اللام لام الجحود، ويكون المعنى، وما كان مكرهم مهما يبلغ من القوة والتدبير والإحكام فى زعمهم لتزول منه الشرائع المحكمة التى هى كالجبال فى ثباتها وعظمتها، وإن الله تعالى حافظ شرعه وأنبياءه والمؤمنين، ولو تضافر الشرك كله.

إن الله لا يخلف الميعاد

قال الله تعالى:

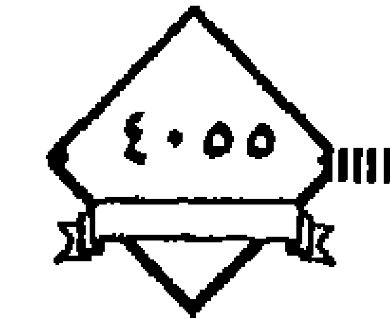
فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

كان النهى فى الآيات السابقة عن أن يُحسب أن الله تعالى تارك الظالمين، وما يفعلونه، غير منزل بهم ما يستحقون من عقاب، جزاء وفاقا لما يفعلون، وهنا فى هذه الآيات يبين أن الله تعالى أنه منزل هذا العقاب لأن جزاؤهم، ولأنه قد وعد رسله به، وإن الله تعالى لا يخلف رسله ما وعدهم به.

قوله تعالى: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، و﴿رُسُلَهُ﴾ مفعول للوعد، أى لا تحسبن الله مخلف ما وعد الرسل، وقدم الوعد على الرسل للإشارة إلى أن إخلاف الميعاد ليس أمرا جائزا بالنسبة لله، سواء أكان من وعده رسولا أم كان غير رسول.

وقد وعد الله رسله بالغلب، وأن يكون السلطان للحق، كما قال تعالى: ﴿... لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ... ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]، وقد بين تعالى أن الغلب لهم فى هذه الآية، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، ﴿عَزِيزٌ﴾ معناه غالب قوى مسيطر يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقوله تعالى: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾، أى صاحب انتقام للحق من الباطل، وللضعفاء من الأقوياء، والانتقام معناه مجازاة المسىء بما أساء وأن يقتص بالحق من القوى للضعيف، وأن تكون العقوبة على قدر الجريمة، فأساس العقاب فى الشريعة أوفى، أى يكون العقاب على قدر الجريمة، وأن يكون جزاء وفاقا لها.



وهنا يسأل سائل، لماذا عبر سبحانه فى الجزاء بالانتقام؟ لأن الظالمين من المشركين قد أرهقوا الضعفاء المؤمنين من أمرهم عسرا وصعبوا الاستمساك بالحق وجعلوه مرا فكان لابد من الجزاء انتقاما من الظالمين لتقر أعين الضعفاء ويذوقوا حلاوة الحق بعد أن ذاقوا مرارته.

وقد يسأل سائل لا يعرف آداب القرآن ولا حكمة الديان: كيف يسمى العقاب انتقاما وهو لإصلاح النفوس لا للانتقام منها، ونظرية الانتقام يبطلها علم القانون، ونقول فى الإجابة على ذلك: إن شأن الآخرة هو القصاص من جرائم الدنيا، وأما فى الدنيا فكلامهم قد يكون واردا على نظر فيه، فإن العقوبات الإسلامية للردع، والإصلاح يكون من طريقه، إذ يكون فيه عبر لمن يكون على استعداد للارتكاب، وقد قال بعض القانونيين: إن العقوبة إذا كانت من جنس الجريمة كانت أردع للجانى؛ لأنه يتصور وهو يرتكبها أن سينزل به مثل الذى ينزله بالمجنى عليه فيمتنع رهبة.

وإن ذكر العقوبات القاهرة فيه عبرة لمن يكونون على وشك الارتكاب فى الدنيا، فمن يعرف أنه سيذل يوم القيامة لا يذل الناس، ومن يعلم أنه ينال عذاب الجحيم لا يكفر ولا يؤذى عبدا.

وإن ذلك الذى يكون فيه انتقام الله تعالى من الأشرار هو يوم القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** (٤٨) ﴾ يوم متعلق بـ(انتقام)، أى أن الله تعالى فى هذا اليوم: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ...** ﴾ والتبديل قد يكون فى الذات كقولك بدلت الدراهم دنانير، ومنه ﴿ ... **بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا** ... (٥٦) ﴾ [النساء]، ﴿ ... **وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ** ... (١٦) ﴾ [سبأ]، وقد تكون فى الأوصاف كتبديل سبائك الذهب إلى حلى فتقلت من شكل إلى شكل، والجوهر واحد فى القولين، وقد يكون تغييرا بين النقيضين أو الضدين، ومنه قوله تعالى: ﴿ ... **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ...(٧٠) ﴾ [الفرقان] فالعبرة فى هذا بالأثر.

وتبديل الأرض أمر واقع لا محالة، واختلف في كيفة وحاله، فقيل: تبدل أوصافها، فالجبال تتفكك وتصبر كالعهن المنفوش، وتتحرك وتضطرب وتتفجر الينابيع وتسوى الماء باليابس فلا يرى عوج ولا أمتٌ، وقيل: إن الأرض كما هي، ولكن يتغير ناسها، ولا يكون فيها ظلم يقع، بل تكون كلها تحت سلطان القهار وروى ذلك عن ابن عباس.

فقد أنشد بعد ذلك:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... ولا الدار بالدار الذى كنت تعلم

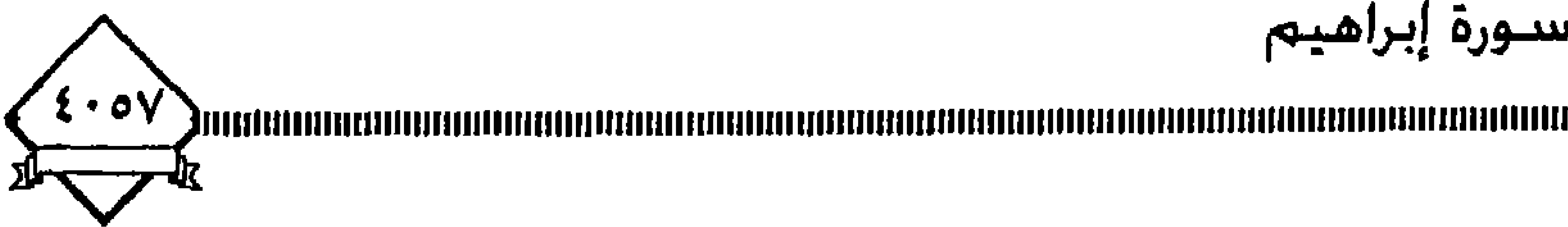
وتبديل السموات بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها[1]، ومن الحق أن كل الكون يتغير فى أحواله وأوصافه ودورانه، فالسماء تتغير، كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)﴾ [التكوير].

وهكذا تبدل الأشياء، وتتبدل الأحوال، فبعد أن كان الظلم فى الأرض بغالب الحق فإذا الحق هو الأمر الذى لا يغالبه شيء.

هذا يوم القيامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، أى ظهروا وعلموا أنهم قد لقوا الله تعالى وقد كانوا يكذبون لقاء الله، ويعجبون من أن يعودوا بعد أن يصيروا ترابا وعظاما، ولكنه لقاء لا يسرهم، إنا هو لقاء القهار لعقابهم؛ ولذلك ذكر سبحانه وتعالى بوصفه الرهيب عندهم الذى ينقض اعتقادهم الباطل فقال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ولفظ ﴿لِلَّهِ﴾ يلقى وحده المهابة فى نفوسهم بعد إنكارهم لقاءه، ووصفه بـ﴿الْوَاحِدِ﴾ ليعرفوا أن شركهم كان باطلا، وأنه وحده الحكم العدل، فلا شفاعة لأحد، ولا لأوثانهم، و﴿الْقَهَّارِ﴾ صيغة مبالغة من القهر، أى أنه سبحانه وتعالى وحده الذى سيوفيهم جزاءهم مقهورين مغلوبين.

---

(١) من الكشاف بتصرف.



ولقد صور الله تعالى حالهم بعد ذلك اللقاء المفزع الذى تشخص فيه الأبصار، وهذه كقوله تعالى: ﴿ ... لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر].

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾.

ذكر الله تعالى لهم أحوالا ثلاثة:

الأولى: أنهم مقرنون فى الأصفاد.

والثانية: أن سرابيلهم من قطران.

والثالثة: أن النار تغشى وجوههم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أولا وصفهم بالأجرام؛ لأن ما كسبوه من جرائم فى اعتقادهم، وفى أعمالهم، وفى إفسادهم فى الأرض عبثا وفسادا، هو السبب فيما ينالون من عقاب.

وقوله تعالى فى الحال الأولى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ من قرن بمعنى جمع، وقَرَّن بمعنى شدد فى الجمع ووثق فى الأمر الجامع، والمعنى مشدودون بوثاق مجموعين فيه لتشابه جرائمهم، واتحادهم فى أوصافهم الإجرامية، ومقرنين فى أيديهم وأرجلهم بالأصفاد، جمع صَفَد، وهو القيد يقيدون به، وتغل أيديهم وأرجلهم به.

هذه هى الحال الأولى.

والحال الثانية: وهى مما ينزل بهم آحادا كما جمعوا جميعا وهى قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ والسرابيل: جمع سربال، وهو القميص الذى يلاصق أجسامهم، ويسبغها، ولا يترك فراغا بينه وبينها، والقطران هو ما استحلب من بعض الأشجار، وتهنأ به الإبل دواء لها من الجرب، ومن شأنه أنه يشتعل بالنار،

فإذا بقمصانهم المتصلة بأجسامهم اللاصقة بها نيران مشتعلة، فالنار تحوطهم من كل ناحية فى أجسامهم.

ولكن القمصان أو السرابيل لا تغطى الوجوه عادة فتجىء الحال الثالثة، وهى قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، أى النار تستر وجوههم كما ستر القطران الملتهب أجسامهم.

وكان ذلك جزاء، والإخبار به تبليغا؛ ولذا قال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

هذا البيان من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ إلى بيان ذلك العذاب الذى تعم فيه النيران أجسامهم، إنما هو:

أولا: لبيان العدالة الإلهية.

وثانيا: ليبلغوا بالفعل وجزائه، والخير والشر، وما يجب عليهم.

وثالثا: للإنذار لكى يعلم أهل الشر مآلهم.

ورابعا: ليعلموا أن الله هو الواحد القهار، وأن لا شىء له صفة الألوهية إلا الله تعالى.

وخامسا: ليتذكر أهل الألباب المدركين المؤمنين، فهو ذكر لهم وإنذار لغيرهم.

أما أولها: فقد ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ وعبر بأن الجزاء هو ما كسبوا من عمل، فليس فى ظاهر اللفظ أنه جزاء العمل، بل هو العمل ذاته؛ وذلك للإشارة إلى المساواة التامة بين الجزاء والعمل، فكأنه هو هو، وقد أكد الله وقوعه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فإن السرعة هنا تأكيد

للوقوع، وأن المقاربة الزمنية بالنسبة لله تعالى مؤكدة، فهو سبحانه لا تستطال على أفعاله الأزمان.

أما الأمر الثاني: وهو التبليغ، فقد عبر سبحانه عنه بقوله: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ تبليغ من الله تعالى لكي يكون حسابهم على بينة من أمورهم، كما قال تعالى: ﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر].

ومن التبليغ ما جاء في الأمر الرابع وهو أن يعلموا ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، هذا قصر، والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله تعالى، أي أنه لا إله إلا الله، فالمعبود بحق واحد، وما عداه باطل في باطل.

والأمر الثالث قبل الرابع، وإن كنا ذكرناه أولاً لاتصاله بالبلاغ في كلامنا وكلام الله أعلى وأحكم وأوثق.

والأمر الرابع: أن هذا الإنذار للكافرين ليعتبروا والعبرة قد تفيدهم.

والأمر الخامس: أن فيه تذكيرا لأولى الألباب، أي أولى العقول المدركين وهم المؤمنين فيزدادوا بهذا البلاغ إيمانا، والله أعلم بشرعه.

* * *



تمهيد:

أول الجزء الرابع عشر، وأوله سورة الحجر، وهى سورة مكية إلا ما قيل: إنه يستثنى مكيَّتُهُ وهى الآية السابعة والثمانين، وعدد آياتها [٩٩].

وقد ابتدئت بالحروف المفردة ﴿الر﴾، وذكر بعدها القرآن الكريم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ وقد أخبر سبحانه أنه ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾ ولكن غلب عليهم الهوى، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)﴾، وإن بين أيديهم العبر ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤)﴾ ومن لهوهم وعبثهم قولهم لنبيهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)﴾، وإن الملائكة لا تنزل، وإذا نزلوا لا يؤجلهم ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨)﴾، وذلك شأن الكافرين يتوارثون ذلك الفكر السقيم جيلا بعد جيل، وإن القرآن باق ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣)﴾.

وإن الآيات لا تخزيهم؛ لأن قلوبهم أغلقت عن الحق ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾.

بعد ذلك أخذ ينبههم سبحانه إلى خلق السموات والأرض وما فيها من عجيب التكوين ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ

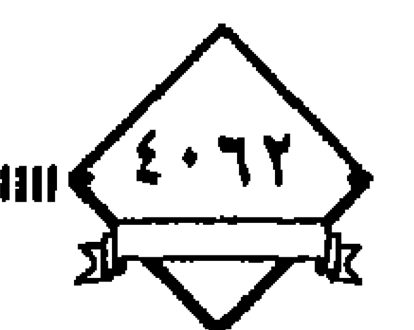
شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وبعد هذا الخلق، وذاك التكوين كان كل شيء في السموات والأرض بأمر الله وفي قبضة يده ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وإن الله تعالى ترى آثاره في خلقه من إماتة وإحياء ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وإذا كنتم ترون بالعيان الإحياء والإماتة فقد كان ذلك فيمن تقدم، وفيمن تأخر، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

بعد ذلك أخذ سبحانه يذكر في هذه السورة خلق الإنسان من طين فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

بعد ذلك أشار سبحانه إلى خلق آدم وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس أن يكون من الساجدين، وغروره بأنه من نار وآدم من طين، وقد طرده الله سبحانه من جنته وقال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾، وأنظره الله إلى يوم يبعثون ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

بعد ذلك ذكر تعالت كلماته جزاء الذين يغويهم إبليس ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، وذكر بعد هذا جزاء الذين لم يطيعوا الشيطان ولم يستطع إغواءهم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ



مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠) ﴾.

بعد ذلك جاءت العبر فى القرآن الكريم، وابتدأت العبر بمن هو أقرب إلى العرب نسبا، ويعيشون فى رحاب بيت الله الذى بناه إبراهيم، فقال فى قصة إبراهيم: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا ﴾ ولأنهم ملائكة، لم يعهد فى الأرض لقاء مثلهم ـ وجل منهم، وقال: ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾.

هذا تذكير بالخلق والتكوين، وأنه يجرى على حكم إرادة الله تعالى الفاعل المختار، لا بالأسباب والمسببات، كما يقول الجاهلون، وإن الأسباب لا تسيطر على فعل الله تعالى، فالأسباب تجعل الرجل لا ينجب وهو كبير فلم ينجب وهو شاب، ولكن بإرادة الله ينجب إبراهيم، وامرأته عجوز عاقر.

بعد هذا ذكر القرآن الكريم ما يكون تهديدا للفاسقين الخارجين عن أمر الله تعالى، وهم قوم لوط، قالت رسل الله تعالى لإبراهيم: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) ﴾.

أنزل بهم العذاب الأليم فى الدنيا، أخذتهم الصيحة فى الصباح فجعل الله تعالى عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾.

بعد هذا يرينا الله تعالى من عجائب قدرته ليعتبر العرب فى قصة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، وتكذيبهم الرسل، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾.

ولقد أخذ سبحانه وتعالى يشير إلى العبر فى تكوين هذا الوجود، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾.

وإذا كان خلق الله السموات والأرض وما فيه من نعم للكافة، فقد أعطاك الله نعمة القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾ ولا تلتفت إلى ما عند غيرك، فما عندك هو الأعظم وهو الجليل: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

ولقد أمر الله نبيه بأن يصدع بما يؤمر به فقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ (٢) ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (٣) وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ (٤) مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ (٥) وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ (٦) لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩)

تكلمنا فى الحروف المفردة، وقلنا: إننا لا نعلم على التحقيق المراد منها، وإنها من المتشابه التى اختص الله بعلمه، واتباع المتشابه ابتغاء تعرفه من صنيع أهل الزيغ: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً...(٨)﴾ [آل عمران]، وقلنا: إننا نتعرف حكمتها، ولا نتعرف المراد، وأشرنا إلى أنها سيقت لتذكير العرب بأن القرآن مكون من الحروف التى تعرفونها، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله، وهذا العجز دليل أنه من عند الله؛ ولأن العرب كانوا قد اتفقوا على ألا يسمعوه أو يلغوا فيه إذا سمعوه، فكانت السور تبتدئ بتلك الحروف الصوتية فتنبههم فينقضون ما اتفقوا، وقيل: إنها أسماء للسور، أو للكتاب.

وجاء بعد هذه الحروف فى السورة ذكر الكتاب الكريم، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارة إلى السورة، أو إلى المتلو بعد هذه الحروف، والكتاب بمعنى المكتوب، وقد وصفت الآيات بوصفين أولهما: أنها آيات الكتاب؛ لأنها معجزة بذاتها، فكل آيات من القرآن معجزة تعد من الكتاب المعجز؛ ولذلك كان يتحدى بالقرآن قبل تمام نزوله، وقد وصفت الآيات بأنها مكتوبة، ووصفت بأنها مقروءة متلوة؛ ولذلك جاء معطوفا على الكتاب قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾، أى مقروء كريم؛ لأنه نزل مقروءًا من الله، ولأنه محفوظ، ولأنه سجل الشرائع السماوية، ولأنه المحفوظ الخالد إلى اليوم، فالكتاب الكريم يوصف بأنه مكتوب، ويوصف بأنه مقروء؛ لأن طريقة تلاوته من عند الله تعالى، فقد أوحى إلى الرسول فكتب وحفظ، وقرئ وحفظ متلوا كما قال تعالى لنبيه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة].

فالقرآن متواتر بكتابته وبقراءته وبتلاوته، فكان حفظه فى الصدور مانعا من تحريف السطور، تلقى الناس القرآن فآمن قليل، وكفر كثير، وقد رجا المؤمنون ما عند الله وطغى المشركون، وبغوا واعتدوا وفتنوا الناس عن دينهم، وإن الله تعالى يبين أن الذين كفروا بهذا القرآن الكريم سيأتى الزمن الذى يودون فيه لو كانوا مسلمين، فيقول تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾.

يقول العلماء فى (رُبَّ): إنها لا تتصل إلا بالاسم، فإذا دخلت على الفعل توسطت ما، وربما هى رب المخففة، وقد قرئت بضم الراء وبفتحها، وهما لغتان فيها.

وقالوا: إن (رُبَّ) تكون داخلة على الفعل الماضى، ولكنها هنا دخلت على الفعل المضارع لتأكد وقوعه فكان كفعل الماضى فى معناه عند الله تعالى، وإن معنى المُضى متحقق لفظا فى ﴿كَانُوا﴾، وربما تكون للتقليل وقد تستعمل للتكثير، والمعنى أنه ربما يود الذين كفروا فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين، وما

هذه الأوقات؟ قيل: هى الأوقات التى تعلو فيها كلمة الحق، وتصير الأرض العربية للمؤمنين فيها الكلمة العليا، ويكون لهم السلطان والقوة، فيتمنى المشركون الذين كفروا بالله وبالقرآن أن لو كانوا مسلمين، فإذا كانوا يغترون الآن بقوتهم، وعزتهم، ويستضعفون المؤمنين، فربما يكون العكس، ويودون لو كانوا مسلمين، وإنهم فى المنزلة عند الله ورسوله ليسوا سواء، فلا يستوى من أسلم، وفى المسلمين ضعف، ومن أسلم وفى المسلمين قوة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ ... **لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً** ... (١٠) ﴾ [الحديد].

هذا إذا قلنا: إن الوقت الذى يكون فيه هذا الوُد، وذاك التمنى هو قوة المسلمين، وإن قلنا: إن الوقت هو يوم يرون العذاب، فإن المعنى أنهم يتمنون أن لو كانوا مسلمين لتكون لهم النجاة، حيث لا منجاة إلا بأن يكونوا مسلمين.

وقد أشار الله تعالى بهذه الآية أن المشركين، وإن استطالوا بفضل قوتهم الآن فإنهم سيتمنون أن لو كان مسلمين فى المستقبل فلا يأسى النبى عليهم، والعاقبة للمتقين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (٣) ﴾.

كان النبى ﷺ يتمنى: لو يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** (٣) ﴾ [الشعراء] ولكن الله تعالى أشار إلى نبيه أنه ليس عليه ألا يؤمنوا ما دام قد بلغ رسالة ربه؛ ولذا قال: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ** ﴾، أى اتركهم يأكلوا ويتمتعوا... وهذه الأفعال مجزومة فى جواب الأمر، وليس تركهم سبب هذه الأفعال، إنما الترك إهمال لهم كما أهملوا النذير والاستجابة، فالترك لانغمارهم فى الشر، وابتدأ بذكر الأكل للإشارة إلى أن متعتهم من أفواههم، كمتعة الحيوان، فهم كالأنعام بل أضل سبيلا، ويتمتعوا تلك المتع المادية التى كان الأكل عنوانها ورسمها، ولا يفكرون إلا فيما هو من جنسه، كألوان الثياب والنساء، وما إلى ذلك وهم يغفلون كأنهم لا يموتون، وكأنهم المخلدون، وأملهم فى هذه الحياة يلهيهم عن التفكير فيما يسوقون إليه أنفسهم،

وأن أملهم المادى المتجدد آنا بعد آن، والذى يزيد وقتا بعد وقت ـ يلهيهم عن الحقيقة، ولعلهم لا يفكرون فى غاية إلا ما توحى بهم آمالهم العريضة فى جاه يريدونه أو سلطان يبتغونه، أو مال يحبونه، أو أى شهوة عاجلة أو مؤجلة يرونها، ويجمع ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾.

ولقد قال ﷺ فيما روى البزار فى مسنده: «**أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا**».

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الفاء) لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، و(سوف يعلمون) تهديد بسوء العاقبة لسوء ما يفعلون، وطيبات المآرب واللذات الدنيوية على نفوسهم، و(سوف) لتأكيد وقوع ما يفعلون ونذيره، والجملة السامية تدل على أن حالتهم توجب اليأس من إيمانهم، وقد قال الزمخشرى: «فسوف يعلمون سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجىء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر ولا واعظ إلا معاينة ما يُنذَرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسول الله تعالى بأن يخليهم وشأنهم، ولا ينشغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ فى تخليهم بما لا يزيدهم إلا ندما فى العاقبة، وفيه إلزام للحجة، ومبالغة فى الإنذار، وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم، وما يؤدى إليه طول الأمل وهذه هى حال أكثر الناس من ليس على من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا على أخلاق الهالكين، هذه حال المشركين، وقد ضرب لهم الأمثال وبين العبر بأحوال الماضين فقال تعالى: ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)﴾.

الكتاب هنا الأجل، أى أن أية قرية أهلكت كان لها أجل معلوم، وهذا فيه تسلية للنبى ﷺ وتهديد لهم بأنه إذا كان قد أهمل أهل الشرك حتى طغوا وتجبروا واستكبروا فليس ذلك إهمالا لجرائمهم، وما من قرية، أى مدينة جامعة أهلكها إلا لأجل معلوم، فانتظروا كتابكم الذى كتب لكم أيها المشركون، فإما أن تخذلوا

بسبب مقاومتكم للرسالة، وتذلوا للحق، والذلة للحق هى العزة، وذلك إذا كان يرجى الإيمان فى ذرياتكم، وإما أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ عاداً وثمود، وآل مدين، ومن قبلهم قوم نوح، ثم كما أخذ فرعون ذى الأوتاد، وسائر الذين طغوا فى البلاد.

وإذا كان قد تركهم أمدا، فلأنه سبحانه قد قرر ذلك فى علمه المكنون.

ولذا قال تعالى: ﴿ **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** (٥) ﴾، وقد عبر سبحانه وتعالى هنا بـ ﴿ **أَجَلَهَا** ﴾ للإشارة إلى أن الكتاب والأجل بمعنى واحد، والتعبير فى الأولى بالكتاب للإشارة إلى أنه مكتوب مسجل مكنون معلوم عند الله تعالى، وعبر فى الثانية بـ (أجل) للإشارة إلى أن له ابتداء وانتهاء، لا تسبق الأمة أجلها وإن طغت وبغت، ولا تستأخره، أى لا تطلب تأخيره، ولو طلبت ما أجيبت؛ ولذا عبر فى الأولى بـ (تسبق)، وفى الثانية بـ (تستأخر)، فمهما طغت لا تسبق أجلها، ومهما طلبت لا يؤخر أجلها، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** ﴾ إشارة إلى أن العاقبة ليست محمودة لهم، فمن شأنها أنهم يطلبون تأخيرها، ولكن مهما يطلبوا لن تؤخر، بل إنها نازلة فى وقتها لا محالة، وقد كانت الهجرة فى ميقاتها، وكانت الحرب الدائرة عليهم حتى كان أمر الله تعالى، وكان قدرا مقدورا، ولقد ذكر الله بعض شر ما قالوا فقال: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** (٦) ﴾.

هذه صورة من طغيانهم، طغت الأوثان على تفكيرهم، حتى حسبوا من يدعو إلى التوحيد مجنونا، وأكدوا جنونه وقالوا مخاطبين النبى ﷺ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ** ﴾ النداء للبعيد، لكبر الدعوى التى يدعونها، وهى جنون النبى ﷺ، و﴿ **الذِّكْرُ** ﴾، أى المذكر لهم ببطلان عبادة الأوثان، وأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، وتسميته بالذكر من الله تعالى لا منهم؛ لأنهم لو علموه ذكرا ما أنكروه، والجملة كيفما كان أمرهم ساقوها متهكمين لاذعين بالقول، كما حكى الله تعالى عن الملأ من آل فرعون: ﴿ **قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**

لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء]، فالكلام سوق لبيان تهكمهم على رسولهم، وإن كان فيه إشارة إلى التنديد بهم، وهو أنهم بدل أن يعتبروا ويتذكروا يتهكمون مع أنه ذِكْرٌ لهم.

وقد أكدوا دعواهم بجنونه فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ خاطبوا النبى ﷺ بذلك الخطاب الذى يبهت كل عاقل مدرك، أكدوه بـ(إنّ) التى لتوكيد القول، وبالجملة الاسمية، وباللام، وإن هذا يدل على شدة تمسكهم بعبادة الأوثان حتى عدوا كل من يدعو إلى تركها مجنونا، ويدل على شدة طغيانهم وأنهم لا يذعنون للحق، وإن دلت عليه دلالة واضحة بينة، ويدل ثالثا: على إمعانهم فى إيذاء النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين وبعد أن سارعوا بالإنكار، وادعاء أن النبى ﷺ جاءهم بغير المعقول، تعنتوا وزعموا أنهم يطلبون دليلا ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)﴾.

(ما) نافية، و(لولا) نافية، إذا دخلت (لو) على (لا) ـ كانت بمعنى الامتناع للوجود مثل قوله تعالى: ﴿... لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)﴾ [سبأ]، وتكون بمعنى الحض مثل قوله تعالى: ﴿... لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ... (٣٢)﴾ [الفرقان] مع امتناع الشىء الذى يحض عليه، وهو ما قبل (لا)، فإنها تدل على الحض، وعلى الامتناع لعدم وجود شىء فقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ﴾ معناها الحض على أن تأتى به الملائكة، وعلى أن الامتناع عن الإيمان لأنه لم تأت به الملائكة، بيد أنه يلاحظ أن (لا) تدل على النفى فى الحال والاستقبال، و(ما) تدل على النفى فى الماضى، وقد جمع فى هذه الآية الكريمة بين (ما)، وفعل المضارع بعدها، فدلت على أن الامتناع عن الإيمان فى الماضى لعدم إتيان الملائكة به، وأنهم مستمرون على عدم الإيمان ما دامت الملائكة لم تنزل به.

وقد رد الله كلامهم الدال على الإمعان فى الكفر، والتعلة للإيغال فيه، فقال فى آية أخرى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] وتعنتوا بهذا وبغيره، واقرأ ما جاء أول سورة الأنعام، فقد قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وفى الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها رد الله تعالى قولهم بقوله تعالت كلماته: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ فى هذا إشارة إلى إمكان إنزال الملائكة، وإنه ليس ثمة أمر يتعذر على الله خلقه، وقد نزل الملائكة إلى أرض قوم لوط فجعلوا عاليها سافلها، وعبر بـ﴿نُنَزِّلُ﴾ إشارة إلى أن نزولها لا يكون دفعة واحدة بل تتوالى النزول، وقتا بعد آخر.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، أى إلا بسبب باعث من الحق فى ذاته بأن تكون حكمة فى نزولهم، ومصلحة فى خطابهم، فالله تعالى ما خلق شيئا عبثا، وما جعل الأمور سدى تنزل الملائكة حيث يبتغى المشركون ويريد الكافرون، وإن لم يكن جدوى من نزولهم، وإن حالهم حال إنكار، لا تحتاج إلى دليل، فإن نزلوا قالوا هؤلاء رجال لا ملائكة كما تلونا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام].

وإنهم إن أنزلوا كما طلبوا لكانت القاضية عليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، أى ما كانوا مؤجلين إلى يوم القيامة إذا نزلوا، والله تعالى بحكمته العالية قدر للمشركين من العرب أن يكون من ذريتهم ومن الجاحدين أنفسهم أمة مؤمنة تحمل عبء التبليغ بعد رسول الله ﷺ؛ لأن شريعته ـ وهو خاتم النبيين ـ يجب أن تكون معجزته باقية ببقاء شريعته الخالدة، ورسالته الدائمة التى لا تنقطع؛ ولذا كانت معجزة القرآن آى من نوع الذكر الدائم الذى يحمل دلائل إعجازه، ويتحدى الأجيال إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

أضاف سبحانه وتعالى القرآن العظيم إلى الذات العلية المقدسة فاستفاد بهذه الإضافة شرفا إضافيا فوق شرفه الذاتى الذى جعله الله تعالى كذلك، واستفاد بهذه الإضافة أيضا أنه نزله بالحق الذى وعد به وقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، فما نزله إلا بالحق والأمر الثابت، وهو أنه باق مادامت الشريعة والرسالة باقيتين، وإنهما لباقيتان.

وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة أن معجزة القرآن من نوع الكلام؛ لأنه ليس حادثة تنتهى بانتهاء زمانها، بل هو كتاب محفوظ قائم تقرأه الأجيال، ويتحداها جميعا، ولقد روينا من قبل قول النبى ﷺ: **«ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذى أوتيته وحيا، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»**.

وقد تعهد الله العلى الكبير بحفظه ليخاطب الأجيال إلى يوم القيامة، فقال: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أضاف الحفظ إليه سبحانه، فكان ذلك تمكينا وتوكيداً.

وقد حفظه الله تعالى كما وعد من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف فأوجب حفظه مرتلا، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤)﴾ [المزمل]، وقد علم النبى ﷺ صحابته ترتيله، وعلموه من بعدهم، واقتضى ذلك أن يعتمد فى حفظ القرآن على الصدور، ولا يكون الاعتماد على السطور وحدها؛ لأنه يمكن فيها التغيير والتبديل، والصدور تمنع ذلك، ولا تزال تطلع على طائفة من اليهود، تريد أن تجعله كغيره من الكتب، فيبين حفظةُ القرآن الكريم إفساد فعلهم الدنيء.

وحفظت شريعته من التغيير والتبديل، فهى قائمة وإن حاول بعض المنافقين الذين يدهنون للحكام تحريفها عن مواضعها بتحليل ما حرم الله، والله من ورائهم محيط.

الكفر كله ملة واحدة

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾

إن حقيقة الكفر واحدة، وإن تعددت الأجناس والأنواع واختلفت الألوان، فالإنسان هو الإنسان لا تختلف حقيقته، وإن اختلفت الصور، فالمؤمن حقيقته واحدة، وإن اختلفت الأزمان، والكفر ملة واحدة، وإن اختلف الأقوام، فما تراه فى مشركى مكة يرى فى غيرهم ممن مضوا.

ولقد قال مسليًا نبيه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠)﴾ هنا اسم مفعول محذوف دلت عليه كلمة أرسلنا رسلا من قبلك، وقد كان لهم ما يكون لك من الذين يعتقدون اعتقادا باطلا، ويستمسكون به ويكونون فرقًا وشيعًا يتشيعون لها، فقوله فى ﴿شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾، أى فى جماعات متشيعة لفكرة واحدة، يتعصبون لها ولا يخرجون عنها، وأصل الشيعة من الشياع، وقد قال البيضاوى فى ذلك: «جميع شيعة، وهى الفرقة المتفقة على طريق ومذهب، من شاعه إذا اتبعت، وأصله الشياع، وهو الحطب الصغار توقد به الكبار».

وعبر سبحانه وتعالى بشيع الأولين؛ للإشارة إلى أنهم لم تكن خالية أذهانهم، بل كانت مملوءة، ولكن بزور من الفكر والقول، يتعصبون له على غير بينة، ويشيع بينهم من غير تفكير، ويتبعوه خلفا عن سلف، ويقولون: ﴿... بَلْ

نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة]، فإذا كان محمد ﷺ قد عانى من هؤلاء المشركين الذين يتشيعون لأوثانهم، فقد عانى الرسل قبلك نفس المعاناة من شيع الأولين، فاصبر يا محمد كما صبروا.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال هؤلاء الرسل مع تلك الشيع المتجمعة على الباطل فقال: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

(الواو) تصل الجملة التى سبقتها بالجملة التى لحقتها، وهى موضع السلوى لمحمد ﷺ من إيذاء الضعفاء أصحابه الذين لا يملكون حولا ولا طولا، ولا جوارا يدفع عنهم، واستهزاء بالدين الحق، وصاحبه وأتباعه، ومعنى الجملة السامية (لا يأتيهم، أى رسول ﴿ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾)، فـ﴿ مِّن ﴾ هنا صلة لبيان عموم النفى، والاستهزاء به، أى لا يأتيهم أى رسول فمهما يكن ما عليه من خلق كريم، ومهما يكن ما يأتى به من حق مبين إلا جعلوه والحق الذى معه موضع استهزائهم وسخريتهم، وذلك لفساد عقولهم، وسفه أحلامهم، وكان ذلك اختبارًا لصبر الرسل، وقد صبروا.

ويقول الزمخشرى: «إن قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ حكاية لحال ماضيه؛ لأن (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو فى معنى الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال، ولعل مراده أنهم استمروا على هذه الحال فى الماضى، فالواقع بك من سخرية واستهزاء هو استمرار لحال وقع بعضها فى الماضى، ويقع الباقى معك، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

وإن ذلك شأن الإجرام فى الحاضر والماضى يدخل بالاستهزاء فى قلوب المجرمين، ولذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

والسلك إدخال الشىء فى غيره كإدخال الخيط فى الإبرة، والرمح فى المطعون، والسهم فى الهدف، والضمير فى ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ يعود إلى الضلال والتعصب والاستهزاء، وهذا كله مفهوم من سياق الكلام، ويصح أن يعود الضمير

إليه على أنه معنى تضمنه القول، والمؤدى على ذلك كذلك الذى كان من السابقين من الأمم الذين سبقوا قومك من الاستهزاء برسلهم، والضلال والحماقة، نسلكه وندخله فى قلوب المجرمين من قومك، وأظهر فى موضع الإضمار، لوصفهم بالإجرام فى هذا المسلك الذى سلكوه سيرا على نمط ماضيهم من المجرمين، فالإجرام متصل الحلقات بعضها آخذ بحجز بعض، لا ينفصل عنه، ولا ينفصم عنه.

وإن هذه الأخلاق من كفر وضلال وتعدٍّ على أهل الحق إذا سلكت فى قلوب أصحابها، لا ينفضون عنها ولو تطاول عليهم الأمد؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى الذكر، وهو الحق الذى يوجب الإيمان، وهذه الجملة مقررة لما قبلها؛ لأنه إذا كان الباطل قد دخل فى قلوبهم دخول الخيط فى المخيط، فإنه لا يمكن أن يجتمع والحق فى قلب واحد، فلا يمكن أن يؤمنوا بالذكر الحكيم، ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾، أى مضت سنة الأولين أى طريقتهم.

وفى ذكر هذه الجملة السامية ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إشارة إلى أمرين: إلى استمكان الكفر والضلال فى نفوسهم، وقراره فيها، وأنه لا رجاء لمن كان على هذه الحال، والثانى إشارة إلى مآل أولئك الماضين من هلاك وعصف بهم، وإذا كان ذلك ما ناسب الماضين، فما يناسب الحاضرين هو سلم مخزية بعد حروب مجلية مع الحق.

وإذا كان ذلك ما كتبه الله تعالى عليهم كما كتب على من سبقوهم، فلا تظن أيها الرسول الأمين أن كفرهم لنقص فى المعجزة التى جئتهم بها، إنما ذلك لأنهم صدوا عن الحق، فلو جئت بالمعجزات التى لا يمارى فيها العقلاء لماروا فيها، وادعوا ضلال أبصارهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة، وأقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، ولو جاءتهم لا يؤمنون، فالله تعالى يبين أنهم لو رفعهم إلى الملائكة وفتح لهم بابا يرتفعون إليه، فقال: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤)﴾، أي فتحنا عليهم فرجة من السماء واتجهوا إليها فاستمروا فيها يرتفعون بها صاعدين إليها، حتى يروا الملائكة عيانا بيانا، ما آمنوا و﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، أي سحرت أعيننا، أو سدت علينا مسام الإدراك، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ الإضراب للترقي في الحكم من سحر أبصارهم إلى سحر كل أجسامهم، وليسوا آحادا بل إنهم قوم مسحورون.

وهكذا تجد الكفر قد استقر في قلوبهم فلا يؤمنون بأية آية ولا يصدقون أي دليل، فذرهم في غيهم يعمهون ولا تلتفت إليهم ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... (١٢٥)﴾ [النحل].

بدائع الخلق والتكوين

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ

﴿ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه حال الجحود الذى استمكن فى قلوب المشركين حتى صاروا بحال يكذبون لها حسهم، وأنهم إذ كذبوا القرآن عنادا وجحودا، فإنهم يكذبون كل شيء مهما يكن مرئيا رأى العين، حتى إنهم لا يقتنعون بما يراه حسهم، فلو عرجوا إلى السماء لأنكروا وقالوا: إن أعيننا سكّرت، وصرنا حيارى كالسكارى، وإن محمدا خَيَّل إلينا ما لم نره.

بعد هذا أخذ يبين ـ سبحانه ـ عجائب التكوين فى خلقه، حتى إن هذه المخلوقات تعلن بالبداهة عن منشئ الكون، وأنهم إذ ضلوا عن هذا، فإن شيئا لا يقنعهم من بعد هذا الضلال.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾، ﴿ جَعَلْنَا ﴾ بمعنى صيرناها بعد أن أنشأناها وأبدعناها على غير مثال سبق، و(البروج) جمع برج، وهو القصر، والمنزل، والبروج هنا منازل النجوم، أى أن كل نجم فى منزله الذى أحله الله تعالى فيه، وارتبط بغيره عبر هذا الوجود، بحيث يكون كل نجم فى مكانه ومداره لا يحول عنه ولا يحور، وكأنها مبنية بناء محكما لا فروج فيها ﴿ ... وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق] فالارتباط بينها ثابت بما يسمونه الجاذبية التى تشد بعضها ببعض، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾، أى أنها فى منظرها وإحكامها زينة فى ذاتها، وجعلها الله تعالى بهجة للأعين، كما قال فى آية أخرى، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ... ﴿٥﴾ ﴾ [الملك]، وكما قال تعالى فى سورة «ق»: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [ق].

وإن الله سبحانه وتعالى بناها ذلك البناء المحكم الدقيق الذى ارتبط ارتباطا وثيقا، وحفظها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧)﴾، و(الشيطان) هو المفسد العابث، و﴿رَّجِيمٍ﴾ بمعنى مطرود ملعون مبعد عن رحمته سبحانه وتعالى، وهذا التعبير السامى فيه إشارة واضحة إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون العظيم، وحفظه من أن يتطرق إليه فساد أو عبث عابث.

ومن هم الشياطين الذين حفظ الله السموات منهم، ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم مرجومون مطرودون من رحمته ملعونون؟ لم يبين من هم، ولم يرد فى السنة من هم، فلنكتف بما بين، غير متزيدين على كتاب ربنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨)﴾.

الاستثناء هنا يصح أن يكون منقطعا عند بعض المفسرين، ويكون المعنى لكن من استرق السمع، وعلم بعض الأمور التى لا يصح إعلانها من أسرار هذا الكون السامى، ولا يكون ذلك إلا بتقدير الله تعالى.

وعندى أن الاستثناء متصل؛ لأن (الفاء) فى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ وهى تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها تبعد أن يكون الاستثناء منقطعا، وإذا كان متصلا يكون المعنى حفظه سبحانه من كل شيطان مرجوم أن يتطاول فيعبث، وأقصى ما يصل إليه أن يسترق السمع، أى أن يأخذ معلومات عن طريق الخفية كمن يسترق السمع، تصديقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ [الشعراء].

وإن هذا الذى يكون كمن يسترق السمع، ويتخذ ذلك طريقا لمعرفة ما لم يعرف، لا ينجو، بل ينزل الله تعالى عليه ما يحرقه، قبل أن يكشف علم ما نهى عنه؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ والشهاب كوكب مضىء، كما قال تعالى: ﴿... فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ [الصافات] فهو نار مشتعلة أو شعلة مضيئة، ويقول ابن عباس: تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع، فينفرد منها، فيرمى بالشهاب.

وإن هذا لتصوير حكيم لحفظ الله السماوات من أن يكون فى السموات مفسدون، كما فى الأرض من يفسد فيها، وهم شياطين خارجون عن الطاعة كشياطين الإنس والجن فى الأرض.

وقد فهم بعض الناس من هذه الآية أنها تشير إلى علم النجوم، وعلم حركاتها، وتعرف أسرار الحظ من هذه الحركات، ولكننا نقول: إن الآية الكريمة بمنأى عن هذا، والله سبحانه وتعالى أعلم بالكون ظاهره وباطنه.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بدائع خلقه فى السموات وصيانتها من كل عابث، وحفظها إلى ما شاء الله تعالى أن تبقى، وبعد ذلك أشار إلى نعمائه على أهل الأرض فيما أنعم فقال تعالت كلماته:

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) ﴾.

﴿مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها ليسهل الانتقال فيها، والإقامة فى أجزائها، وتبدو مبسوطة سهلة مع أن تعاقب الليل والنهار يدلان على أنها تدور حول الشمس، وأنها كرة سابحة فى الفضاء بقدر معلوم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ [النازعات]، ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) ﴾ [الذاريات]، فكان خلق الأرض، ومدها، ودحوها نعما مكنت الإنسان من الانتفاع بها، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. رواسى جمع راسٍ أى ثابت، يثبت الأرض بثقله، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴾ [النبأ].

وإنه من تلاقى السماء الدنيا بالأرض يكون المطر الذى ينبت به كل شىء، وكما قال تعالى: ﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (٣٠) ﴾ [الأنبياء]، فمن هذا المطر يكون الغيث الذى ينبت به النبات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وموزون معناها مناسب مقدر بقدره الذى يكفى أهلها، ويجعل إقامتهم فيها طيبة راضية، وقد وزنها خالق كل شىء ولتكون للأحياء عليها غير

منقوصة، بل كاملة تجعلهم فى بحبوحة وسعادة كاملة لو أحسنوا فيما بينهم، ولعل فى ذلك ردا على الذين يدعون إلى نقص سكان الأرض بدعوى أن الأرض ضاقت بمن فيها، وكما قال الذين يريدون أكل الشعوب الضعيفة وإبادتها، أو أن تكون طعما لهم أن الإنسان تكاثر نسله، فليحد ذلك التكاثر، إن بكر الأرض والماء اللذان لم يستغلا أكثر وفرا وأدر خيرا، إن خالق الإنسان هو الذى جعل النبات بقدر موزون، وهو الخلاق العليم.

ثم بين سبحانه المخلوق، ووزن حاجته فقال تعالت كلماته:

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾.

وجعل لكم فى الأرض معايش، أى مكنكم من أن تتخذوا معايش لكم من طعام موفور، وثياب سابغة، ومأوى تأوون إليه، مكنكم سبحانه وتعالى، لكم ولأولادكم، وكل من يكونون فى عيالكم، والضعفاء الذين تعاونونهم، مكنكم من هذه المعايش ومكن حيواناتكم الأليفة من الرزق، وعبر عن هؤلاء الأتباع بقوله: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾، أى أتباعكم الذين لا ترزقونهم أنتم، بل الله تعالى هو رازقهم، ليعلموا أنهم لا يرزقون أولادهم حتى يقتلوهم أو يؤذوهم، بل الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وقد قال البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ «يريد به العيال والخدم والمماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظنا كاذبا، فإن الله يرزقهم وإياكم، وفذلكة الحياة الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء فى الوضع مُحدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة، وطبيعة، مع جواز ألا تكون كذلك على كمال قدرته، وتناهى حكمته، والتفرد فى الألوهية، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم من ذلك ليوحدوه.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى أن كل شىء عنده بمقدار، وأن كل شىء عنده خزائنه، فقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾.



(إن) هنا نافية، و(من) صلة لبيان عموم النفى، والمعنى ما من شىء إلا عندنا علمه، والمكان الذى يكون منه، ونحن الذين نظهره إن أردناه ولا ننزله إلا بقدر معلوم.

فالمراد كمال السلطان، وإحكام الخلق والتكوين، وبسط الرزق، وتقتيره، الله يبسط لمن شاء ويقدر، وقد يعطى العاصى إملاء له ليكون عقابه، وقد يمنع التقى اختبارا لصبره ورجاء ثوابه، وكل له ثواب وجزاء، فالعطاء بيد الله، والتعبير بقوله تعالى: ﴿عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ مجاز عن علمه سبحانه وتعالى المحيط بكل شىء، وبأنه سبحانه وتعالى الموزع للأرزاق، وأنه المختبر للناس بعطائه ومنعه، فهو يختبر من يعطيه بالعطاء ليكفر النعمة أو يشكرها، ويختبر من يمنعه ليصبر أو يجزع، وكل بقدر معلوم، لا يكون عفوا من غير تقدير، بل بإحكام وتدبير.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض أسباب الرزق فقال تعالت كلماته:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)﴾.

أرسلها أطلقها، والرياح بالجمع، ولواقح جمع لاقحة، وفى تفسير لاقحة نظران أحدهما - أنها محملة بالماء أو مثيرة للسحاب المحملة بالماء، كما قال تعالى: ﴿... وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)﴾ [الرعد]، وكأنها شبهت بالحامل لإثمارها وإنجابها؛ وذلك لأن المطر يتكون من بخار الماء، ويتكاثف حتى يصير سحابا، والرياح تحرك هذه السحب من مكان إلى مكان حيث تصادف جوا باردًا، فتنزل أمطارا، ويزكى ذلك النظر قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ فذكر الماء بعد ذلك دليلا على أنها تثير السحاب المملوء بالماء، وذلك ما سوغ وصفها باللواقح. والنظر الثانى- أن تكون الرياح حاملة بذور التلقيح للأشجار فهى تحمل بذور الذكورة أو الأنوثة، وعندى أن النظرين يمكن الجمع بينهما، إذ لا تعارض، فالرياح لواقح باعتبارها حاملة أسباب اللقاح، كما



محمد أبو زهرة
الإمام الجليل
الإمام الشيخ محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، فقد أثرى المكتبة العربية بموسوعته الإسلامية الشاملة، التى كان ختامها ذلك التفسير العصرى للقرآن الكريم.
ولم يكن - رحمه الله - فى تفسيره مقلدا لمن سبقوه أو مجرد ناقل لما كتبوه، ولكنه نظر إلى العصر الذى تعيشه